أولاد بازوزو

رواية

اســـم الكتـــاب: أولاد بـــــــــــــــازوزو
التـأليـــــــــف: نـــــوار مهـــــدي النجـــــار
نـــــوع العمـــــل: روايـــــــــــــــــــة
مراجعـة وإخـراج فنـي: عمـــــرو ســـــالم ســـــوح
رقـــم الإيـــداع: 2020/ 21183
التـــرقيم الـــدولي: 978-977-835-222-1
الناشـــــــــــر: زحمـة كتـاب للنشـر والتوزيـع
١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر Facebook
za7ma-kotab@hotmail.com Email
002 01205100596 Tel
002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار زحمة كتاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل
من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

أولاد بازوزو

رواية

نوار مهدي النَّجار

إذا كنتَ قويًّا فستنهض بعد كل كَبْوة،
لكن تأكَّد أنك لن تعود كما كنت أبدًا.

نوار مهدي النجار

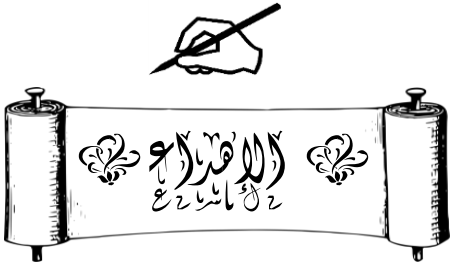

إلى ذلك الكهل الذي قال لي يومًا:
"لن تصبح كاتبًا أبدًا ".

إذا رغبتَ في أن تولد من جديد..
فلا بد لك أولًا من أن تموت.

جيمس تومسون

(١) مرشَّحة الصُّدفة

الساعة الرابعة مساءً.. يوم الأربعاء، السادس من آب، عام ٢٠٣٩.

يعود شهم إلى بابل بعد مكالمة هاتفية مقتضبة من والديه، يطلبان حضوره بإلحاح، يدخل إلى البيت وأمارات الاضطراب بادية على سحنته، حال البيت بائس، وأشياء كثيرة تغيرت منذ أن غادر إلى بغداد لغرض الدراسة قبل عدة شهور، حديقة المنزل المزهرة صارت أرضًا صلدة لا تنبت فيها إلا الحشائش الشوكية الضارة، الأثاث هاجمه الإهمال.

ينادي عليهم لا جواب لكلماته إلا الصدى المجبول بالخوف والذعر، يدخل غرفتَيهما، يجدهما منتحرين شنقًا، تركا تلك الرسالة التي ظل صداها متشظيًا في تلافيف دماغه الطري ذي الواحد والعشرين ربيعًا:

" لم يعد يسعنا البقاء، الأمر يفوق الاحتمال، لن نكون أسرى للشيطان.. بُنَي إذا وصلتك رسالتنا، اترك المنزل واهرب.. "

البشر تملَّكهم الهوس الانتحاري، يعانون من تغيرات مزاجية حادَّة، يترنَّحون من القمة إلى الهاوية، من شغف النشوة إلى حضيض الاكتئاب، هذه هي الحالة العشرون بعد الألف من حالات الانتحار التي حدثت في خلال شهرٍ واحدٍ هذا العام في مختلف أرجاء

الكرة الأرضية بعد أن قررت الدول المتقدمة أن تبني مدنًا ضخمة وذكية على شكل عوامات عملاقة تجوب المحيطات والبحار هربًا من اليابسة التي صار العيش فيها محفوفًا بمخاطر جمَّة، المسطحات المائية تزدرد الجزر والسواحل بنَهم وشراهة، مدن اختفت بالكامل ومدن أخرى جرفتها السيول والأعاصير المدمِّرة، لم تبقِ منها إلا الأطلال والذكرى، الطبيعة أعلنت ثورتها العارمة واحتجاجها على ما لحق بترابها وسمائها من دمار أحدثته وساخة الإنسان وملوِّثاته.

يحزن شهم كثيرًا لفراقهما، يقيم مأتمًا، يتلقى العزاء بموتهما، يعرض المنزل للبيع تنفيذًا للوصية، لم يحصل على مشترٍ، يداهمه الوقت، يؤجل الموضوع، يعود إلى بغداد ليكمل دراسته في كلية الهندسة.

*****

تمزق غلافنا الجوي وصارت سياط الشمس تخترق ثقوبه من غير حُجُب، تجلد من يعيش على هذا الكوكب الهرِم، الكل بات على صفيحٍ ساخنٍ، سقطت بيوت الأسكيمو الثلجية على رؤوس ساكنيها فلم يعد هناك قطب متجمد شمالي. ذابت جباله الثلجية وارتفعت مستويات المسطحات المائية عشرات السنتيمترات. آلاف الكائنات الحية انقرضت بعد أن تقطعت بها السبل وفقدت قدرتها على التكيف مع الوضع الجديد.

وعلى الرغم من أن الأطباء يكتشفون كل يوم عقارًا جديدًا متطورًا يطيل من عمر الإنسان وكاميرات متناهية في الصغر وباهظه الثمن، تسبح في جسم الإنسان، تكتشف الخلايا السرطانية في بداية تكوينها، إلا أن الفايروسات والأوبئة تتطور لتصبح أكثر فتكًا بالناس المنقسمين ما بين فقراء يقطنون اليابسة المليئة بالأمراض والموت بالجملة، يتصارعون على فتات ما تبقى من خيرات الأرض، وأغنياء يسكنون البحار، يعانون من العزلة والكآبة توقًا لرؤية المناظر الخلابة.

كان عام ٢٠٣٩ سيئ الطالع على العراق وباقي الدول الريعية التي يعتمد اقتصادها كليًا على النفط، والتي تداري فشل سياساتها بزيادة التصدير، حتى أصبح العرض أكثر من الطلب، كما تنوعت مصادر الطاقة وحلت الطاقة المتجددة بديلًا ناجعًا لهيمنة النفط والغاز على الأسواق كما حدث مع الفحم من قبل.

يعاني العراق الأمرَّين؛ فمرة يتأثر بأحداث داخلية وإدارة رعناء، وتارة يتأثر بما يحدث حوله؛ فالعالم لم يعد كما كان سابقًا، حتى بات على شفا مسغبة بعد أن ذهبت الحكومات المتعاقبة بخيراته الوارفة من باطن الأرض ومن فوقها. لم يبقَ سوى بضعة براميل نفط، وبنى تحتية خاوية على عروشها أضنتها الحروب والاقتتال والفتن. الناس في مهب الريح، باتوا يسيرون بخطوات ثابتة إلى الوراء غارقين في مستنقعات الفقر والفاقة. دجلة والفرات أصابهما التيبس التام، وازدادت العواصف الترابية وارتفع مستوى التصحُّر

وكأن العراقيين دُفنوا في مقبرة جماعية وهم أحياء.

كل تموز الشمس تجلد الكادحين بسياطها اللاهبة وتجبرهم على الخروج اعتراضًا على الفشل في إدارة الدولة ومواردها. الخدمات في تراجعٍ مستمرٍ، ونظام الدولة محصور ما بين المحاصصة المقيتة ومقت المحاصصة. التظاهرات تتبعها تظاهرات أكبر منها وكأنها أمواج مكسيكية تتكسر على ضفاف غول الفساد العظيم وانقضاض الهمجية على مقاليد الحكم، التغير لا يتناسب مع حجم التضحيات والدم المراق، الثكلى لا يشفي غليلها إصلاحات الحكومة العرجاء، واليتامى لا تعوضهم معونة الدولة البائسة عن رحيل آبائهم برصاص هم يدفعون ثمنه، المليونية الحاشدة عام ٢٠٣١ أجبرت الحكومة على إجراء بعض التعديلات البسيطة في النظام السياسي فالحكم تحول من برلماني إلى رئاسي يتيح الحق لأي شخص قد تجاوز عمره الثلاثين ربيعًا ويجد في نفسه الكفاءة والمقبولية لأن يترشح لهذا المنصب.

السباق إلى الرئاسة يكون على مرحلتين. كل شيء يتم في المرحلة الأولى إلكترونيًا، يطرح كل مرشح برنامجه الانتخابي على الشعب عبر منصة إلكترونية أعدت لهذا الغرض، يجرى بعده الاقتراع الإلكتروني، ينتقل المرشحون الأكثر شعبية إلى المرحلة الثانية التي تكون فيها المنافسة شرسة، ويستخدم فيها كل أنوع الأسلحة حتى المحرمة دوليًا.

في هذه المرحلة الحرجة تجري عدة مناظرات للتعرف أكثر على المرشحين وبرامجهم، يواجه المرشح منافسه وجهًا لوجه ويطرح عليه الأسئلة مباشرة للإطاحة به وإظهار نقاط ضعفه.

في السنوات الأخيرة، اكتسبت المناظرة أهمية كبرى في تحديد بوصلة العراقيين في اختيار الرئيس عبر الاقتراع العام في البلاد كل أربع سنوات.

في انتخابات عام ٢٠٣٢ فاز الرئيس أبو زيدون بعد أن حشدت الأحزاب المتنفذة مؤيديها بالترهيب والترغيب، حصد الأغلبية الساحقة وتفوق على منافسيه على الرغم من أن الناس خرجوا عليه متظاهرين ومعربين عن امتعاضهم من طريقة إدارته المنبطحة والخنوعة للدولة.

أبو زيدون يتقن فن التكيف، ويعده هو مقياس الذكاء، يعد الحرباء أشد ذكاء وحكمة من الأسد على الرغم من أنها تعيش في بيئة قاسية جدًّا لكنها تكيفت مع محيطها في حين يعاني الأسد من الانقراض وسيلحق قريبًا بركب القائمة الطويلة من الحيوانات المنقرضة. ما هي فائدة الاعتراض على كل شيء ولعب دور المعارض المتمرد في بلد يسير بالمقلوب، والقوانين فيه معكوسة، وخزائن البلد مشرعة على مصراعيها لمن يجيد استغلال الفرص؟

بهلوان يرقص على الحبال المتعددة، مرة تجده يصلي في الصف الأول ويدعو الله باكيًا منتحبًا، ومرة تجده يخرج في عيد العمال مع جماهير الحزب الشيوعي مناصرًا ومؤيدًا لمطالبهم المشروعة.

نظريته هذه طبقها من جديد وفاز في انتخابات عام ٢٠٣٦، الكل كان يشيد بأدائه الحكومي باستثناء الشعب العراقي الذي بُحَّ صوت شبابه من أجل التغيير، لكنه أذهل الجميع عندما خرج معهم وشارك في التظاهر ضد حكومته وناشد من ساحة التحرير بتنفيذ جميع مطالب المتظاهرين؛ فقد كان فعلًا هو الشيء ونقيضه، يتلوَّن مع المزاج العام ويخلق الفوضى ويصدِّر الأزمات ليبقى ويستمر بالبقاء. أجرى جراحة بسيطة للدستور ورفع الفقرة التي تحدد عدد ولايات الرئيس ليمهد لرئاسة ديمقراطية مدى الحياة. أصبح الطريق معبدًا ليقطف ثمار الدربكة التي أحدثها ويفوز من جديد في الانتخابات المزمع إجراؤها عام ٢٠٤٠.

*****

- "سيداتي آنساتي سادتي:

اليوم المنازلة الكبرى والفتكة البكر.. اليوم أكون أو لا أكون.. اليوم والأيام القليلة المقبلة ستكشف لنا الرئيس الجديد، اليوم نفتتح وعلى بركة الله مناظرة المرشحين لرئاسة جمهورية العراق لعام ٢٠٤٠، بين الرئيس السابق أبي زيدون والمرشحة الشابة الدكتورة أنهار".

تصدح المقدِّمة هند بصوت جهور وهي ترفع الستار عن فعاليات المناظرة المفصلية والحاسمة لكشف النقاب عن ملامح القائد المقبل للبلاد.

تُعرِّف أطراف المناظرة، تبدأ بأبي زيدون، تصفه بالسياسي المحنك وحامي الدستور، درأ بحكمته كثيرًا من المخاطر عن العراق في خلال فترة حكمه، برعايته الأبوية وبساطته حاز على المقبولية، وتوافقت عليه الكتل السياسية التي تمثل جميع أطياف المجتمع، ذلل العقبات وخفض حُمَّى الصراعات والتناحر وقرَّب وجهات النظر بين أصحاب القرار من الطبقة السياسية. سعى لكسر شوكة الإرهاب والعمليات الإجرامية ورفع شعارات عديدة لمكافحة الفساد المستشري في الدولة.

- رحبوا معي بالسيد أبي زيدون.

تتابع بحماس وهي تصفق ترحيبًا به مع الجمهور، الذي يقف أغلبه إجلالًا لهذا السياسي المخضرم. أحد الحاضرين يهتف:

- نموت.. نموت ويبقى أبو زيدون..

والعوام تردد خلفه:

- نموت.. نموت ويبقى أبو زيدون..

تدخلت هند لتفرض الهدوء في القاعة، تستدير نحو "أنهار"، تقدمها بصوت أقل حماسة، امرأة أربعينية حاصلة على الدكتوراه في هندسة إدارة المشاريع من جامعة ليون الفرنسية، وناشطة في حقوق المرأة ومنظمات المجتمع المدني.

تعمل حاليًا أستاذًا مساعدًا في جامعة بغداد، لديها عدة بحوث في مجالات هندسية مختلفة، تطمح إلى تطبيق ما تعلمته من طرق

الإدارة الاحترافية للمشاريع والبرامج الرشيقة عمليًّا؛ لتوجيه بوصلة الدولة نحو مصاف الدول المتقدمة. سجلت براءة اختراع في تطوير جهاز يسهم في إنقاذ الأطفال من الغرق. الطلب على هذه الأجهزة أصبح مطردًا بعد أن بنت الدول المتقدمة مجمَّعات سكنية عائمة فوق الماء لدرء ارتفاع منسوب المسطحات المائية المرعب الذي بات يهدد اليابسة جمعاء بالغرق الوشيك.

تنكمش أنهار خلف منصتها مرتبكة لا تعي خطورة ما هي مقدمة عليه، تحس عيون الحاضرين تطاردها، تبتلع شهيقًا عميقًا ثم تزفره بحدَّة، تحاول ضبط إيقاع أنفاسها المرتعشة، لتغدو ربيطة الجأش لا تفزع، تنظر إلى أبيها الذي يرسل لها بين الحين والآخر رسائل مكدَّسة بالحب ومعجونة بالطمأنينة، لكن وجوه باقي الحاضرين واجمة، ترمقها بنظرات شزِرة، ملامح عدم الرضا كانت بادية على سيماهم، لم تحُز مؤهلاتها على إعجابهم، بعضهم يرى أن المرأة لا تصلح إلا لخدمة زوجها وأولادها، شعرها الكستنائي المتطاير من غير حجاب يعد حصانًا مارقًا متمردًا على الأعراف والدين ويجلب العار لصاحبته مهما اجتهدت وثابرت، حتى المتفائل منهم يراها مجرد طفلة دخلت إلى مكانٍ مخصصٍ للبالغين، وجبة دسمة عاجلًا أم آجلًا سيلتهمها طباخو السياسة في البلد.

المجتمع تختلط فيه الأمزجة والتيارات، سواد الناس هنا يضعون مقاسات دينية للرئيس الجديد، لا يهمهم ما يحمل من الشهادات، أو ماذا يمكنه أن يقدم، تبقى سيرته الذاتية مجرد حبر

على ورق ولا تساوي شيئًا أمام زبيبة الصلاة أو المسبحة ذات خرز الكهرب الضخمة وخاتم العقيق اليماني، حتى وإن سرق صاحبها أو باع الوطن بحفنة من اليوان الصيني.

تتقدم هند خطوات واثقة إلى الأمام كعارضة أزياء، ممشوقة ومثيرة، لتقدِّم لجنة التحكيم التي تتألف من ثلاثة قضاة مشهورين، مهمتهم إدارة جلسات المناظرة ومراقبة الحوارات، وتوضيح بعض المواد القانونية كلما دعت الحاجة لذلك. ولهم الحق في تأجيل المناظرة إلى موعدٍ آخر. رئيس اللجنة القاضي شرف الدين، قاضي المحكمة العليا، متجهم الوجه، أصلع يلبس نظارة سميكة العدسات. يعرف بالصرامة والشدة، يصدر حكم الإعدام على المتهمين المدانين من غير أن ترمش له عين وكأنه يشرب قدح ماء بارد.

تعرض لأربع محاولات اغتيال، نُفِّذ آخرها في صبيحة اليوم الذي أطلق فيه حكم الإعدام على صهر أحد قادة الكتل التي تحكم وتسرق فوق القانون، سيارة مُظَلَّلة اعترضت طريق القاضي في وضح النهار وسط الشارع، فتح الملثمون النار عليه وعلى سائقه، السائق قضى والقاضي نجا على الرغم من الطلقة التي أصابت ذراعه الأيمن وأحالته إلى عضو ميت، ملتصق بجسده لكنه غير قابل للحركة، يشير بيده اليسرى إلى هند لتمنح المتبقي من الوقت إلى الرئيس وأنهار.

المناظرة في جلستها الأولى بروتوكولية مقتضبة، تقتصر على تقديم السيرة الذاتية للمرشَّحين وكلمة مختصرة يلقيانها على مرأى ومسمع من كل التواقين إلى حكومة تنصفهم.

الفقراء يتأملون تغير الحال، والمهجَّرون يدعون الله جهارًا مرارًا أن يهدي ولاة الأمر ليلتفتوا إلى حالهم ويعيدوهم إلى ديارهم، المتظاهرون المرابطون جزعوا وهم يهتفون بالتغير لكن التغير لم يأتِ منذ عقود طويلة، تتغير الموضة والملابس وحال الدولة لا ينصلح وكأن الثروات نقمة على الناس، تحيلهم إلى مستهلكين، تقتل الرغبة في الإبداع وتزيد مطامع السُّراق والمختلسين وتكالب الدول على البلد.

يتنحنح أبو زيدون ثم يسترسل في خطبته:

-"بسم الله الرحمن الرحيم.. الحمد لله رب الأرباب ومسبِّب الأسباب.. والصلاة والسلام على محمد خير المرسلين وعلى آله وصحبه المنتجبين.

أما بعد؛ -يتوسط القاعة ثم يكمل ارتجاله بدون ورقة تساعده- فإني نذرت عمري من أجل شعبي، وتحملت الصعاب من أجلكم، لكن البلاء لا ينفك يُنزل علينا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، لقد هجرنا قرآننا وتركنا ديننا، وصارت شوارعنا مليئة بالعاريات الكاسيات والرجال المتشبهين بالنساء والنساء المتشبهات بالرجال.

يتنهَّد ويزفر حسرة ثم يقول:

- من يُرد لهو الدنيا فلينتخب غيري فأنا رجل أمسك على ديني كالماسك على جمرة، الطريق معي صعب والمخاطر جسام، أعداء الأمة يتربَّصون بنا، الصهاينة يفعلون الأفاعيل ويحيكون الدسائس..

ترتفع نبرة صوته ويصرخ: لكن عزَّ من قال:

﴿ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠ ﴾[1]، أعدكم إن انتخبتموني فسوف نعبر إلى بَرِّ الأمان وتنجلي الغيمة الدكناء، بلادنا ستكون مقبرة الأعداء والمتربصين بكم سوءًا..

كما أعدكم أني سوف أكمل ما بدأت، أغلق الملاهي ودور النجاسة والفجور، وأبني ألف حسينية وألف جامع يصدح فيها ذكر الله، سنتقاسم كسرة الخبز معًا لكن لن نركع إلا لله".

يقاطع القاضي شرف الدين كلمة أبي زيدون:

- دولة الرئيس، أستميحك عذرًا، يرجى الالتزام بالوقت، وقد تجاوزت الوقت المخصص لك..

يرمقه بنظرة تنبئ عن عدم الرضا ويعود أدراجه نحو منصته، يقفز أحد الحضور هاتفًا:

- إن لم تفز يا فخرنا، سأفجر نفسي وعيالي وسط أعدائك يا سيدي المفدَّى..

---

[1] الأنفال: ٣٠.

يُهرع رجال الأمن صوبه، يقيدون حركته ويأخذونه خارجًا.

ترجع هند لتفرض الهدوء في القاعة، وتسمح لأنهار أن تلقي كلمتها، تقف وتقول بصوت متهدِّج:

- "مرحبًا..

أنا في الحقيقة.. لم أعتد بعدُ على أجواء السياسة والخطب الرنَّانة والمؤثرة على الرغم من مئات المحاضرات وعشرات البحوث..

أنا...."..

يقاطعها القاضي شرف الدين:

- لا نكاد نسمع، لو رفعت صوتك أكثر، سيكون أفضل.

يلتفت أبو زيدون إلى أحد مساعديه ويضحك ضحكة فيها كثير من الخبث.

- نعم، سيادة القاضي..

رفعت صوتها بتكلُّف حتى بانت عروق رقبتها وتابعت:

-"يبدو أن الخُطب السياسية تختلف عن البحوث العلمية الدقيقة التي تصاغ كلماتها بحيث لا تقبل التأويل، أما حديث السياسيين، ومنهم السيد الرئيس، ففيه كثير من الطرق المتعرِّجة والجمل الفضفاضة المبهمة التي تقبل التفسير على أكثر من وجه دون أن تقيِّد صاحبها بأي التزام..

ما معنى: "نعبر إلى بر الأمان" و"الأعداء يتربصون بنا"؟ هكذا يطمس أي مقياس أو مؤشر لقياس نجاح الدولة أو عدم نجاحها؟

من أجل مَن نرضى بالذل ونقبل بكسرة الخبز وبلدنا يملك هذا الخير كله؟!

نحن نحترم حرية المعتقد ونحترم مقدساتنا ونعتز بها، لكننا يجب أن نؤسس لمنظومة دقيقة تقدِّر حرية الاعتقاد وتنبذ من يتلفَّف بعباءة الدين ويسرق باسمه، مثلما نميِّز الحشائش التي تنمو في حقل الورود المزهِرة.

أنا أحمل طموحًا لوضع أسس دولة المواطنة، دولة تحترم كل الأديان ولا تميز بين مواطن وآخر على أساس اللون أو المعتقد، لا حصص ولا محاصصة".

تأخذ نفسًا عميقًا وتكتسب ثقة أكبر، تغادر منصتها ويعلو صوتها: "نجاح الحكومات وفشلها يقاس بالمؤشرات، كم أصبحت نسبة الفقر؟ كم أصبحت نسبة الأمية؟ كم أصبحت نسبة البطالة؟ كيف هو حال الاقتصاد قبل أن يمسك الرئيس الفلاني زمام الأمور وبعد أن أمسك؟ أما ورعه وحسبه ونسبه فلا يُشبع الجياع ولا يشغل العاطلين".

تختم كلامها: سئم الجميع من تردي الوضع ويرغبون في التغيير، إذًا لماذا لا نغيِّر؟

*****

يعود شهم إلى بغداد، يحاول جاهدًا التوفيق بين تعليمه وتدارك فاجعة وفاة والديه، يذهب إلى مقهى البيروتي، يمضي أغلب وقته هناك، لا صديق ولا خليل، يدخن السيجارة الإلكترونية، يذاكر بعض مواد الهندسة الصعبة، يشرد عقله كل مدة، يحدق في رواد المقهى، بعض الشباب يحاولون تعلم تناول الطعام باستخدام الأعواد الصينية كنوع من أنواع الترف والإتيكيت. نتائج الحرب العالمية الثالثة أفرزت هيمنة الصين وحلفائها على مقدرات العالم وانتعش طريق الحرير الجديد، صارت ثقافتهم وديانتهم محط اهتمام العالم وأصبح التنين الصيني حاضرًا في كل احتفال.

يعيد نظره نحو كتابه، يراجع دورة حياة المشروع وطرق اختيار المشاريع الناجحة، يخزن المعلومات في دماغه. التعليم لم يعد صعبًا كالسابق، الشرائح الإلكترونية عالية الدقة باتت تزرع في دماغ الإنسان، تسمى "العقل الافتراضي المساعد"، وتحتوي على كم هائل من المعلومات، كما يمكن تحديثها وإضافة معلومات أخرى. الأغنياء هم الأسعد بهذا الاكتشاف المبهر فقد زال عنهم عناء المذاكرة والتحضير بعد أن وضعوا شرائح بسعات كبيرة ومواد أصلية لا تتفاعل مع الجسم البشري، في حين يضع عامة الناس شرائح تتراوح ذاكرتها ما بين ثمانية إلى ستة عشر (جيجا بايت) تكفي لتخزين بضع عشرات من الكتب وبعض الذكريات الضرورية.

يزيح منهج الدراسة من أمامه، يخرج من حقيبته ديوان "منزل الأقنان" للشاعر بدر شاكر السياب، يسحب بشراهة دخان

سيجارته كأنه يتعاطى جرعة من المهدئات، يتلذذ بتلك القصائد العتيقة، يعتقد أن القصيدة كالنبيذ يزداد جودة كلما تعتق.

يهرب فكره مع قصيدة "سِفْر أيوب"، تراوده أحلام اليقظة، يمتزج ألم القصيدة بآلامه، تتلبد غيوم ماطرة، تثقل مخيلته، يظهر طيف من نور، بريق أمل يشق العتمة، يكسر أمواج اليأس العاتية، إنه طيف أنهار، أستاذة إدارة المشاريع في كلية الهندسة، يعشقها من غير أن يبوح لها، الحواجز تحاصر حبه الموءود قبل الولادة، فاتنة ومتعلمة ومتزوجة ولديها عائلة في غاية الروعة، لكن يا لهذا الحب الأعمى، لا يميز بين المعقول واللا معقول، بين الحياة والانتحار.

يجر ورقة بيضاء، يكتب بيت شعر، يمسحه، يضع رأسه بين يديه، يتعرق، تنثال عليه الأفكار الدافئة، يحولها إلى حبر مقفًى على ورق، بضعة أبيات بدائية الصنع، يفرغ فيها إرهاصاته ونوازعه، يوقف بلسع النار جرحه النازف، ثم يكسر قلمه، لا يستطيع البوح لأحد بما يعانيه، يلملم أغراضه المبعثرة، ينكب عائدًا نحو الأقسام الداخلية في الجامعة.

*****

تجلس أنهار منزوية في مكتبها، تحدِّث منهج جمعيتها الخيرية التي تُعنى بمحاربة التلوث والقضاء على أسبابه المتعددة. نظَّمت مع عدد من الناشطين والناشطات وقفات احتجاجية طالبت بسن قوانين تحافظ على البيئة وتحد من تلوثها.

الحكومة صماء بكماء عن أنين الطبيعة وتدهور مناخها، فتداري فشلها وعجز أذرعها التنفيذية باستخدام القوة المفرطة تجاه من يعترض أو يحتج.

- كيف حال ابنتي المرشحة؟

أبو أنهار يسألها وهو يطرق باب المكتب، تبتسم هي ابتسامة لا تظهرها إلا له، تجيب السؤال بسؤالٍ آخر:

- أبي.. أنا لا زلت محتارة في أمر ترشحي.. من الذي رشحني؟ من وقع الاستمارة عوضًا عني؟

يطرق رأسه في الأرض، ويقول في هدوء:

- تسوق الأقدار في طريقنا أشياء كثيرة، لا نجد تفسيرًا لها، لكن دائمًا ما يكون الخيار لنا؛ إما أن نقبلها وإما أن نرفضها، فاحزمي أمرك بالمضي قدمًا أو بالتراجع.

يسود صمت بينهما، تفكر في الأمر، الآلاف من الناس وضعوا ثقتهم بها، وانتخبوها إلكترونيًّا في المرحلة الأولى، مئات الرسائل التي تصل إليها يوميًّا، يعرب مرسلوها عن أملهم في أن يحدث منهجها التغيُّر المنشود في الواقع المزري، طلابها يتوسَّمون بها

الخير، حتى ابنتها أزل، رسمت لوحة تضع فيها أمها حاملة علمًا يرفرف عاليًا والناس يصفقون لها، كما أنها لا تخفي طموحها في أن يكون صوتها مسموعًا وتعتلي بساط السلطة والنفوذ..

- هل ظهرت تلك البقع الحمراء من جديد؟

يقول الأب وهو يكسر الصمت الذي خيَّم على المكان، محاولًا تغيير الموضوع الذي يشغل جزءًا كبيرًا من تفكير ابنته الوحيدة.

أنهار تعاني من حالة غريبة ونادرة، عجز الأطباء عن تفسيرها، كلما استشعرت الخطر يقترب من شخصٍ عزيزٍ أو محبَّبٍ إلى روحها تنتابها موجات من الهلع والخوف وتظهر على وجهها وذراعها بقع حمراء تشبه الطفح الجلدي.

ظهرت هذه الحالة لأول مرة عندما شاركت في إحدى المظاهرات، وأصيبت صديقتها بعدة جروح بعد أن استخدمت الشرطة العيارات النارية الحية ضد المحتجين المطالبين بإنقاذ نهرَي دجلة والفرات من التلوث وارتفاع السن الملحي القادم من البحر.

تكيَّفت مع بقعها الحمراء وتعايشت معها، بل راحت تسخرها لصالحها؛ فكلما طفح جلدها عرفت أن شخصًا حولها في خطر.

*****

(٢) أزل

أنهار تمثل التقاء جيل الطبقة الكادحة مع الأرستقراطية، والدها ضابط متقاعد تحول من غرور القيادة وصولجان السلطة إلى حياة المتقاعد صاحب الدخل المحدود، والوقت الوفير، يتفقد ابنته الوحيدة، يلاعب حفيدته الوحيدة، ثم يعود وحيدًا يعصر ذكرياته، يطالع صوره وهو يخوض أشرس المعارك، يتحسس آثار الجراح القديمة، تحت كل جرح تختبئ قصة، يزور مقابر أصدقائه التي خلفتها تلك الحرب، يسترجع معهم الذكريات.

كان يتمنى أن ينجب ولدًا، لكن أنهار عوضته عن تلك الأمنية، صارت جنديَّه الأشوس، صاحبة عزيمة وبأس لا ينثنيان، لا تعرف الانهزام.

في أثناء الدراسة الابتدائية، اعتدى عليها طفل ضخم البنية، ظلت تقاوم لكماته المستقيمة وركلاته المبرِّحة، أمسكت بإحدى أذنيه وقضمتها، وعلى الرغم من أنه كسر ذراعها لكنها كانت تشعر بنشوة المنتصر وهي تراه يلوذ بالفرار ممسكًا أذنه، والدم يجري منها حتى لطخ ياقة القميص الأبيض. لم تكن تسمع صوت المدرِّسة الموبِّخ، تنصت فقط إلى زملائها وهم يهمسون، "تلك التي اقتطعت أذن عدي وكفَّت أذاه عنَّا، إنها بحق بطلة".

ضمَّد أبوها جراحها ولم يعاتبها فقد كان يراها محاربًا إغريقيًّا يدافع عن حقِّه، انحنى ظهره في سبيلها حتى أصبحت أستاذة جامعية تدير مكتبًا استشاريًّا مشهورًا. تحولت تدريجيًّا من الحياة البسيطة إلى الترف. تزوجت من المهندس والمقاول المعروف أحمد طاهر وأنجبت طفلة في غاية الروعة سماها جدها أزل، فِلقة قمر، تتقاسم هي وزهرة الأوركيديا تسعة أعشار جمال هذا الكون، لديها غمازة في الخد الأيسر تأسر اللب، وشعر كستنائي حريري كأمها يداعب شحمات الأذن.

انتقلت العائلة الصغيرة المؤلفة من الزوجين والطفلة إلى بيت جميل في الجادرية، باحة كبيرة وحديقة خضارها بهي وأشجارها وارفة. أنهار تربطها قرابة مع جارهم أبي درة، ابنته تشاطر درة اللعب معظم الوقت، الجار يستقبل بنت الجيران دائمًا، أم أزل تتأخر في الجامعة وينشغل أبوها في تنفيذ المقاولات والمشاريع التي يقع أغلبها خارج بغداد.

لا أحد يستطيع أن يمحو عيد ميلادها السابع من الذاكرة عندما احتفلت بمفردها مع عائلة درة، الأب بات خارج المنزل للعمل، والأم خرجت مضطرة لحضور اجتماع طارئ في الجامعة، فوزير التعليم يحضر الاجتماع بمعية رئيس الجامعة، والكل يطرح أفكارًا جديدة في حضرته لتطوير المؤسسات التعليمية على وجه عام وجامعة بغداد على وجه الخصوص، يحين دور الدكتورة أنهار، تقف بوجل، تتلعثم وتتناثر منها جمل غير مترابطة، تنكزها صديقتها

وتهمس:

- ما بالك يا أنهار؟ صار وجهك أحمر.

تنظر إلى يدها، بقع حمراء تغطيها، تغادر الاجتماع وتخرج مذعورة، تترك الوزير فاغرًا فاه ومحدِّقًا لا يرمش، ينتابها شعور بأن ابنتها في خطر، تقود بسرعة جنونية، تتجاوز الإشارات المرورية الحمراء من غير وعي.

- أين أزل؟ أين ابنتي؟

تصرخ مقتحمة بيت أبي درة، يبهت الجميع، أم درة تشير بيدها إلى الأعلى وتقول:

- يلعبان فوق.

تصعد السلالم وهي تهذي، لا تجدهما في غرفة درة، تلحظ الباب المؤدي إلى سطح المنزل مفتوحًا، تلمحهما، تكاد أزل تسقط من أعلى وهما يطاردان حمامة حطت لترتوي، تصرخ عليها، ترتدع وتعود أدراجها، أنهار تحتضن ابنتها وهي ترتجف من رأسها حتى أخمص قدمها، تقول لها والدموع تنهمر:

- هل أنت بخير يا روح الروح؟

- ماما، لا تخافي فأنا أستطيع الطيران مثل تلك الحمامة.

تجيب أزل وهي تشير إلى الحمامة المحلِّقة في السماء، أبو درة ينهر ابنته وينهاها عن مثل هذه التصرفات الخطرة، يعتذر لأنهار

ويعدها أن لا يبعد ناظريه عن الأطفال مرة أخرى.

تهدأ قليلًا، تغادرها البقع الحمراء، تحاول الاتصال بزوجها أكثر من مرة، لا يجيب إلا بعد المحاولة العاشرة، تخبره، لا يكترث كثيرًا، تسمع صوتًا نسائيًا بجواره، تسأله فينكر، يدعي أنه صوت التلفاز، تنبجس حمم الشك في قلبها من جديد.

علاقتها بزوجها علاقة صورية لا عمق لها، يشوبها الشك القتَّال، الشعور بالخيانة يتملكها، وجذوة الحب قتلها الروتين، العشرة مزَّقها الانشغال، الاثنان يهرولان بأنانية نحو صرح الذات الممرَّد.

تنهي المكالمة وهي تستذكر مواقف أنبتت الريبة في خلدها، في إحدى ليالي تشرين الباردات، عاد يترنَّح سكران وفي خده أثر قبلة حمراء، زعلت، صالحها واعتذر، وعدها أن لا يكررها لكنه حنث بقسمه بعد أشهر قليلة وعاد أكثر طاووسية من ذي قبل.

يهاتف عدة نساء شبقات، يتأخر خارج البيت كثيرًا، تتلبد الغيوم السوداء في رأسها، تسأل نفسها وهي تنظر إلى ابنتها التي غفت في حضنها، "كيف تعود بعلاقتها معه إلى جاده الصواب؟"

*****

حبها للتميز يستنزف وقتها، لا تجد نفسها إلا وهي تقف بين طلابها، تداعب عقولهم بالأرقام بل تخترقها، بعض الأحايين تعرف ما يجول في خواطرهم قبل أن يطرحوا تساؤلاتهم، تحلل جذور المشاكل وتجد لها الحلول، مع صعوبة المشاكل الهندسية وتشعبها. الأمور ليست وردية بالكامل، يتمرَّد بعض الطلاب، يشاكس بعضهم الآخر في أثناء المحاضرة.

شهم يشكل أكبر هواجسها، الشخصية الجدلية في الدرس، جريء ومقدام، حادُّ الذكاء، يصعب السيطرة عليه، حصان برِّي تفشل كل محاولات ترويضه، يفكر خارج الصندوق، يحرجها بطرحه غير المتوقع، درجاته متأرجحة بين الثرى والثريا، غير منضبط في الحضور.

نتائجه في الفصل الأول متدنية، حادثة انتحار والديه أثرت في نفسه، لكنه حتى بعد أن تعافى من تلك الحادثة المروِّعة، إجاباته لم تكن مقنعة، حيرت أنهار وجعلتها تضع يدها على خدها، تجرُّ قلمها الأحمر، تكتب الدرجة ثم تشطبها، يلازمها التشتت، تكرر الحالة ثلاث مرات. السؤال الرابع كان واضحًا ومباشرًا: "ما هو المسار الحرج للمشروع؟" لكن الإجابة لم تكن واضحة ومربكة لدكتورة متمرسة وذات باع طويل في السلك التعليمي.

-" يا شذرات العقيق

يا أعبق الرحيق

يا طيفًا دافئًا.. وسط الصقيع".

كانت إجابته على السؤال العلمي أبياتًا شعرية، بل إنها أبيات غزل، استدعته إلى مكتبها، طالبته بتوضيح، ما أدلى به لم يكن مقنعًا، حثته على التركيز على دروسه، تؤمن أنه مشروع طالب متفوق لكنه لم يكن يكترث. يعتقد أن التعليم الجامعي يزيد من نسبة غباء الإنسان، يضع الإبداع في قوالب ضيقة، يرسم حدودًا لطريقة التفكير.

- شهم، أعرف أنك تملك أكثر من هذا المستوى، هذه حصة هندسة وليست سوق عكاظ.

تقول له بصوتٍ حاد، يضع عينه بعينها ويبتسم:

- كيف يولد الإبداع من أرحام لا تتمرد؟ أنا مجرد هاوٍ أكتب شعرًا بلغة ما زالت تحبو لكني أقطِّر عمري حبرًا لنظم تلك الأبيات ثم أنفخ في كل بيت من روحي فيصير حيًّا، "إنني أنطق بما لا يجرؤ بعضهم على التفكير فيه".

يستعير بعضًا من كلمات "ديستوفيسكي"، يعقد حاجبيه ويكمل:

- حسبتها بالورقة والقلم، سأصل إلى النجاح بدون هذا السؤال، فكتبت ما أحسست به.. هل أعجبتك الأبيات؟

تنأى بعينيها عنه، تحاول أن لا تخرج عن الموضوع وتضيع في متاهات، وتمتمت:

- يجب أن لا ينحصر تفكيرك في النجاح فقط.

لم تكن لديها الجراءة لتسأله من يقصد في أبياته.

- جامعاتنا تعلمنا كيف نصبح أغبياء، تؤهل جيوشًا من المهندسين، جل حلمهم أن يجدوا وظيفة وضيعة عند مدراء تجلبهم المحاصَّة المقيتة والسلاح الغدار ليتسلطوا قسرًا على رقابنا.

هي توافقه الرأي في كثير من طروحاته لكنها مجبرة على الالتزام باللوائح والسياقات المتبعة في الجامعة وإلا خسرت وظيفتها التي تؤمِّن لها دخلًا جيدًا.

يرجع إلى الوراء خطوة واحدة ثم يكمل:

- على أية حال، أنا أستطيع أن أخمن السؤال الثالث من ورقة الاختبار التي ستُعدينها الشهر المقبل.

- ماذا تقول؟ مستحيل!

- هل نتراهن؟

تقف، تعقد يدها حول صدرها، تستفزها كلماته، وتحرر روح التحدي لديها، تجيب بنبرة حادة:

- إذا خسرت فهل تعدني أن تثابر من أجل التفوق وتواظب على الحضور؟

- موافق.

يجيب وأجنحة التحدي تطير به نحو السماء، يعود إليها بضحكة ماكرة:

- إذا خمنت السؤال الثالث من الامتحان المقبل، هل توافقين على ارتداء الفستان الأسود في المحاضرة المقبلة، لقد كنت فائقة الجمال وسَبيتِ قلوب العباد في حفل بداية السنة؟

ينسحب بهدوء، يترك أنهار وقد احمرَّت وجناتها، كلماته أحرجتها، تغلق باب المكتب، تفكِّر فيما يقول طالبها لقد نجح في أن يشغل حيزًا من بالها المزدحم، تقرأ أبياته من جديد، تعجبها كلماته، يشرد ذهنها بعيدًا فتلجمه، تتصل بزوجها لا يرد كالعادة، ترمي الهاتف أرضًا، تشتاط غضبًا.

*****

- أهلًا وسهلًا.. أعزائي المشاهدين وضيوفي الكرام.. نحن في اليوم الثاني من مناظرة الرئاسة.. ثلاثة وأربعون متنافسًا في المرحلة الإلكترونية، لم يعبر العتبة الانتخابية إلا الدكتورة أنهار بما يقارب ثلاثة ملايين صوت، وأبو زيدون بما يزيد عن خمسة ملايين صوت.

تقول المقدمة الحسناء هند وهي ترحب بالحاضرين ثم تكمل:

- المناظرة قد تمتد لعدة أيام بحسب ما يراه القضاة مناسبًا ليكون منهاج كل مرشح وبرنامجه واضحَين للناس الذين سوف يدلون بأصواتهم في المرحلة الثانية والحاسمة من الانتخابات.

تعود إلى المنصة وهي تقلب في جدول أوراق اليوم ثم تستدرك:

- تتألف المناظرة من ثلاثة أجزاء رئيسية؛ الجزء الأول أنا أسال سؤالًا ولكل من المرشحين أن يجيبني عليه في مدة لا تتجاوز دقيقتين.

تبلع ريقها وهي تنظر إلى المرشحين المنتصبين خلف منصتيهما.

أما الجزء الثاني فسوف يكون سؤالًا يطرحه أحد المرشحين للآخر؛ وسيخصص الجزء الثالث لأسئلة القضاة والجمهور والاستفسارات القادمة عبر البريد الإلكتروني. لنبدأ باسم الله وعلى بركة الله.

يبدأ الحاضرون بالتصفيق الحار بينما يهتف أحدهم:

"الوطن أنت يا أبا زيدون.. ولا وطن من غيرك.."

الناس يرددون العبارة حتى تدخلت هند، تلزم الجميع بالسكوت وتقول:

- السؤال الأول: ما هو تقييمك لوضع الدولة الحالي والرؤى المستقبلية التي تعمل على تحقيقها فيما لو فزت؟ ونبدأ مع السيد أبي زيدون لمدة دقيقتين.

أبو زيدون رجل لَسِن، متمرس على الظهور أمام الكاميرات والأضواء. شكر الله وحمده كثيرًا وصلى على النبي وردد آية من الذكر الحكيم، كان حريصًا على إظهار التدين للناس، يخط حوله دائرة القدسية، هالة وهَّاجة تمنع رؤية العيوب، يشرح كيف أن البلد خرج منتصرًا من حربه ضد الإرهاب وبدأ يتعافى تدريجيًّا وأكد أن المرحلة المقبلة ستكون مرحلة إعمار وبناء ورفاهية.

خطبته العصماء تحيد عن تحليل حقيقي للوضع المتردي للبلد، يداعب مشاعر الفقراء، يصدِّر الأزمة إلى الخارج، يشير بأصبع الاتهام نحو عدو وهمي وخفي يجعله شماعة يعلِّق عليها فشله ضاربًا عرض الحائط بكل المؤشرات التي تصرخ بأن الوضع ليس على ما يرام وأن كل الثروات تنهب بانتظام، ألاعيبه تنطلي على كثيرين، يوهمهم أن الفقر أمر الله وأن المؤمن ليس أمامه غير الصبر على المصائب.

ينهي كلامه، تتوجه الأنظار نحو أنهار التي يصيبها شيء من التوتر، تطقطق أصابعها، لا تعرف أين تضع يديها، الوقوف أمام الطلاب يختلف عن الوقوف أمام القضاة والكاميرات وعشرات القنوات الفضائية، وأمام منافس له نفوذ عظيم، صوتها يرفض

الخروج إلى الهواء، تناولت كوب ماء، ارتشفت منه رشفتين، تحلّل بصوت متهدج الوضع الفوضوي والمأساوي الذي يمر به البلد نتيجة الإدارة الفاشلة والتجاذبات الحزبية والطائفية التي يكابدها. تذكر أرقام وإحصائيات ومؤشرات عالمية ومحلية تدعم كلامها، ترغب في إحداث تغيير جذري في عمل المؤسسات وتمكين الشباب، وحصر السلاح بيد الدولة بحيث لا يكون أحد فوق القانون، وتمهيد أرضية لتدفق الاستثمار وتقليل هروب رؤوس الأموال خارج البلد.

- يجب أن نعي جيدًا أن العراق اليوم ليس دولة بالمعنى الحديث للدولة، وإنما مجموعة عصابات توافقوا على رئيس تسوية لا يملك من أمره شيئًا.

وما إن رمت جملتها الأخيرة حتى عمَّ الصخب في أرجاء القاعة كأنها رمت قنبلة وسط الحشود. أحد المحامين التابعين لأبي زيدون يحاول استغلال وقع الجملة لصالح موكله، يترجل ويهتف:

- العراق أكبر من أن تهينه تلك المتبرجة.

بينما يصيح الآخر:

- كيف تتطاولين على العراق وتقولين إنه ليس بدولة؟ العراق مهد الحضارات وهو دولة قبل أن تكون لأسيادك دولة.

الجميع يصب جام غضبه على الدكتورة أنهار التي لم تقدِّر ضحالة المستنقع الذي غرزت فيه قدميها.

يتنفس أبو زيدون الصعداء، وترتسم على محياه ابتسامة فيها كثير من الخبث واللؤم وهو ينظر بطرف عينه نظرة رضا إلى المحامي

الذي استثار عاطفة الناس وحول النقاش الموضوعي إلى هرج ومرج.

يستخدم القاضي شرف الدين سلطته للسيطرة على الفوضى التي اعترت القاعة، يؤجل المناظرة إلى الأحد، الرابع من أيلول لسنة ٢٠٣٩.

تخرج أنهار مذعورة تجرُّ أذيال الخيبة، تبحث عن ملاذ آمن، تنظر إلى أبيها متخوفة من المرحلة القادمة، أصبحت هدفًا لعملية سياسية لا رحمة فيها ولا شفقة بينما هو يبتسم ويمسك يدها محاولًا إيصال طاقة إيجابية تمنعها من الانهيار.

الصحفيون يحيطون بها، يقدمون ميكرفوناتهم مع جملة من الأسئلة التي يتمحور أغلبها حول جملتها الأخيرة.. ترفض التكلم حتى استفزها سؤال: " لماذا شتمتِ الوطن؟"

تقول وقد بدأت تنتحب:

- أنا لم أشتم بلدي.. أنا أحبه.. أنا فقط حاولت أن أضع يدي على الجرح الغائر من أجل أن ينهض مهد الحضارات من جديد.. من أجل أن ينهض الطود الأشم ويلفظ الخونة خارج حدوده..

وعلى الرغم من أن كلماتها كانت نابعة من القلب، مشفوعة بدمعات أحرقت الوجنات، لكنها لم تلقَ آذانًا مصغية؛ فالإعلام منقسم ما بين متصيِّد في الماء العكر، أو موجَّه يحمل أجندة الممول والجهات التي تقف خلفه.

تنهال عليها الأسئلة من كل حدب وصوب:

-"هل ستنسحبين؟"

"هل ستعتذرين للشعب؟".

تدير وجهها وتهرب منهم، تقضي الهزيع الأول من الليل مختبئة في حضن أبيها تراقب أزل وهي تلعب. تراودها كوابيس اليقظة، تفكر بجدية في الانسحاب، زميلتها في الجامعة الدكتورة إيمان تزورها وتشد من أزرها، تبث فيها روح التحدي من جديد، خسارة جولة ليست نهاية العالم.

- اخرجي للعالم.. دافعي عن وجهة نظرك.. لا تدعيهم يتلاعبون بك.. أنهار التي أعرفها لا تستسلم بهذه السهولة.

تقول إيمان وهي تجر صديقتها جرًّا إلى مقهى رضا علون في الكرادة، تطلب قهوتها المُرَّة المفضَّلة، تعدل مزاجها قليلًا، تذكرها بماضيها الناصع والحافل بالتحديات ومجابهة الصعاب، يتعرف عليها أحد رواد المقهى، رجل كهل تضع الحياة أوزارها على وجهه وجسمه فتقوِّس ظهره، وتبيِّض شعر رأسه ولحيته. يسير نحو طاولتها ويهمس بحبور:

- لا تدعيهم يفوزون.. فهم لصوص واللص مهما كان يبقى جبانًا ومنهزمًا داخليًّا.. كوني مع الشعب فالشعب أغلبية.. والأغلبية ستنتصر وستندحر الهمجية..

يدنو منها، يقدم لها وردة فوَّاحة، وينسحب والابتسامة لا تفارق محياه، فعلًا هي تحتاج إلى تلك الكلمات التي تولِّد لديها رغبة شديدة في العودة إلى النزال من جديد.

*****

الصمت يعم القاعة إلا من نقر القلم على السبورة الذكية، ترسم أنهار الخطوط والدوائر التوضيحية، تشرح كيف تتحول الأفكار إلى مشاريع مهمة تحمل قيمة مضافة عالية المردود؟ كيف يحدث التزحف في النطاق؟ ولماذا تتلكأ المشاريع؟ وما هي الطرق الناجعة لتلافي هذه التلكؤات؟ أناملها تسطر المعادلات وعقلها يحضِّر لنزال يوم الأحد، تنوي استئناف المناظرة مع أبي زيدون من جديد.

تلتفت إلى طلابها وهي ترى في أعينهم اللهفة لسماع ما حدث خلف الكواليس في المناظرة، وكيف جرت الأمور مع دكتورتهم، وهل ستصمد أمام عصف إعصار أبي زيدون المدمدم؟

تقف في منتصف القاعة الدراسية وتقول بصوت واثق ومليء بالحماس:

- أنا لا أعرف من رشَّحني ولماذا وكيف؟ لكنني لن أخذل الأصوات التي وثقت بي لإزاحة السيد الرئيس الجاثم على قلوبنا.

تتنهد، تسير خطوتين إلى الأمام وتكمل:

- أنا لا أملك أسلحته وأساليبه ولكنني أملك روح جندي يذود عن عرضه ووطنه حتى آخر رمق.. شكرًا لمن ساندني وشكرًا لمن تفهَّم موقفي وسط التضليل الإعلامي الأهوج.

كلمات قليلة لكنها مؤثرة، ألهبت الحماس في نفوس طلاب جامعيين شباب يرون الدكتورة أنهار أيقونتهم وأملهم في تغيير واقع لا يسر صديقًا ولا عدوًّا.

تدعو الطلاب إلى استراحة أمدها عشر دقائق ثم التهيؤ لامتحان الفصل الثاني، وعينها تترصد شهمًا الذي يقبل عليها، وهو يحمل قصاصة ورق صغيرة، يضعها أمام طاولتها ويخرج، يتغير لون وجهها، تقول في نفسها: "كيف عرف هذا الوغد السؤال الثالث؟"

يلحظ أحد الطلاب قسمات وجهها، يسألها:

- دكتورة، هل هناك شيء ما؟

تجيب باقتضاب:

- كلا.. كلا.

تنفد الدقائق العشر، وهي ما زالت تحاول إيجاد منفذ، الأسئلة أضحت مكشوفة على الأقل لطالب واحد، يجلس الطلاب في مقاعدهم، وجوههم واجمة، يرهبون بطش الأسئلة وصعوبتها، يرفع شهم يده ويقول:

- دكتورة هل تسمحين لي؟

يقول شهم وهو يبتسم، يصاب قلبها بالخفقان، تخاف تصرفاته غير المنضبطة، ترد:

- تفضل؟

- لدي برد اليقين أنك ستفوزين.. فقط اصمدي.. ستمر بك أيام عسيرة.. لكن إن مع العسر يسرًا.

يقول بصوت نابع من القلب، يدغدغ مشاعر الجميع وهي في مقدمتهم، لكنها تؤثر أن لا تجيب أكثر من "شكرًا".

تعلن تأجيل الامتحان إلى الأسبوع المقبل، يعم الفرح في القاعة، يخرج الجميع، تلتمس من شهم أن يتبعها إلى مكتبها، تغلق الباب خلفهما، تطالبه بتفسير:

- شهم، اصدقني القول، كيف عرفت؟

- لدي شيطان.. يجب أن توفي بوعدك.

يجيب بشكل مبهم، ويطالبها بالرهان، ترد بحزم:

- أنت مجرد "هكر" وسارق للبيانات.. أعدك بأني سأعرف قريبًا، وحينئذٍ لن يبقى لديك مستقبل في هذه الجامعة.

- إنني أكثر من مجرد "هكر"، ولن تجدي شيئًا يدينني.. بالمناسبة ستهزمين أبا زيدون في هذه الجولة لكن لا تفرحي كثيرًا فالطريق ما زال طويلًا.

يلقي هذه الكلمات على مسامع أنهار المشدوهة، لا تحرِّكُ ساكنًا، يلوذ هو بالفرار، يتركها تضرب أخماسًا بأسداس، تلقي نظرة ثانية على قصاصة الورق، كتب على أحد وجهَيها السؤال الثالث بالضبط كما كانت تنوي طرحه على طلاب صفها.

- كيف فعلها هذا المجنون؟

تغمغم وتقلب قصاصة الورق على الوجه الثاني، كتب عليه أبيات شعر:

متعب ما بين السندان والمطرقة

أكبح جماح نفسي التوَّاقة الشَّبِقة

تائه بين الرمش والعين..

بين غبار الصدِّ ورائحة الزنبقة

مرهَق

منهَك

متشرنق داخل شرنقة

أيا ملاكي..

أيا ملهمتي..

دِينٌ جَديد حبُّك أم هرطقة؟!!

تطوي الورقة، تتنهد وتسرح بفكرها بعيدًا، "ماذا تريد يا شهم، لماذا ترسل لي شعرًا غراميًّا يأسر الفؤاد؟ هل أنت معجب بأستاذتك المتزوجة؟ إلى أين تريد أن تصل أيها المجنون؟

*****

(٣) من ورَّط أنهار؟

- نطلب من الجمهور عدم المقاطعة.. لنعد من حيث انتهينا.. أستاذ أبا زيدون.. ما هو تقييمك لواقع قطاع الصحة؟ وما هي خططك لتطويره لو فزت بولاية ثالثة؟ باختصار لو سمحت، لديك دقيقتان.

تقول هند وهي تفتتح اليوم الثالث من المناظرة.

يطنب ويسهب الرئيس السابق في شرح إنجازاته في هذا القطاع الحيوي؛ أما عن المشاريع التي سوف تنجز، فيتحدث عن كمٍّ هائلٍ من الوعود التي سيقطفها المواطن فيما إذا فاز، يحمل في يده قائمة من المستشفيات قيد الإنجاز ومسوَّدة قانون ينصف الأطباء والكادر الصحي ويوفر لهم الحماية ويقلّل نفورهم وسفرهم خارج القطر، يدغدغ أمال الناس بأنه سيقر قانونًا منصفًا لضمان رعاية صحية لكل مواطن في هذا البلد مهما كان دخله، ثم يضيف أن كل هذا مرهون بانتخابه رئيسًا للبلاد من جديد، ثم يقول وهو يقهقه:

- لن تعرفوا زوجاتكم من دقة عمليات التجميل التي سنجريها مجانًا لكل الراغبين من أبناء بلدنا الأعزاء.

يصفِّق أغلب من في القاعة بحرارة مع بعض الزغاريد التي أطلقتها المناضلة أُم دموع التي أتت داعمة للرئيس، فقد كانت بعثية

في زمن البعث، و"دعوجية" في زمن الدعوة، وزيدونية في زمن أبي زيدون، تقتات على التملق والتمسح بحذاء السلطان، تتحول في أقل من دقيقة إلى شاعرة أو مغنية راب أو أم شهيد أو حامية أعراض أو حتى قرقوز يرقص في سرك، تنهي وصلتها الفنية وأهازيجها في حب الرئيس ثم تجلس.

تجاوز أبو زيدون الوقت المخصص له، مما اضطر المذيعة للتدخل وتحويل السؤال إلى د. أنهار التي عكفت على تسجيل ملاحظات تفند إجابة أبي زيدون، فقد ردد في خلال دقيقتين فقط، كلمة "سوف" خمسًا وعشرين مرة محاولًا تخدير الناس وجعلهم يحلمون بمستقبل وردي من نسج خياله ليتناسوا الواقع المرير. أعداد الأطباء، وجودة الخدمة الطبية المقدمة للمواطن في تناقص مستمر؛ حيث أشار التصنيف الأخير الذي نشره موقع "بغ ثينك"، أن العراق يقبع في ذيل قائمة الدول المهتمة بقطاع الصحة، يخصص العراق طبيبًا لأكثر من ١٥٠٠ مواطن، بينما تخصص دول مثل البوسنة وكولومبيا وليبيا وعمان والسعودية وتونس وتركيا طبيبًا لكل ٧٥٠ مواطنًا، كذلك تطرقت د. أنهار إلى موضوع الاعتداءات المتكررة على الأطباء حيث إن الطبيب بات يخصص جزءًا من ماله ووقته لـ "الدية" و"الفصل" و"الكوامة". يبتز المسلحون الكوادر الطبية لأخذ المال منهم في غياب واضح للدولة والتغافل عن أي قانون ينصف هذه الشريحة. أغلب مشاريع الصحة متلكئة ومتوقفة ولم تبصر النور بسبب الصراعات والإدارة

الفاشلة، مما انعكس سلبًا على نوعية الخدمة الصحية المقدمة للناس. أحد المستوصفات التي من المؤمل أن تدخل الخدمة قريبًا لفك الاختناق في عدد المرافق الصحية، تحوَّل إلى حظيرة للأغنام بعد أن نشب صراع لا يحل بين المقاول والدولة، وقامت إحدى المليشيات المتنفذة بوضع يدها عليه وتأجيره لصاحب مواشٍ.

- سيدي الرئيس.. لنتكلم عن الأرقام بدلًا من الوعود.. هل تسمح لي لجنة الإشراف الموقرة بعرض هذا القرص المدمج الذي يحوي على نماذج من حالات الاعتداء السافر على الكوادر الطبية في وضح النهار من قبل أشخاص يدَّعون أنهم ينتمون إلى مليشيات فوق القانون.

تقول وهي تحمل بيدها قرصًا مدمجًا، يلوِّح القاضي شرف الدين بالموافقة، تعرض مقاطع من تلك الانتهاكات الصارخة، رجل يقتحم المستشفى شاهرًا سلاحه، يهين الطبيب المقيم ويعتدي عليه من غير أي محاسبة، حالات كثيرة مماثلة تحدث كل يوم، تجزم أنهار إذا انتهج أبو زيدون السياسة السابقة نفسها فسنواجه أمراضًا وأوبئة كانت قد انقرضت منذ زمن بعيد في العالم المتحضر مثل الكوليرا والطاعون.

يحس أبو زيدون بالحرج، يميط ربطة العنق عن رقبته، يشعر وكأن أحدًا ينقض عليه ليخنقه. يفقد أعصابه ويخرج عن أدبيات المناظرة، يقاطع أنهار أكثر من مرة، يصب سيلًا من التنمُّر والساديَّة في ألفاظه والجمل المصوبة نحوها ويصرخ:

- الديَّة هي عرف عشائري محترم في تقليدنا العربي الأصيل ومستمد من شريعتنا، يؤخذ من الطبيب نتيجة خطأ ارتكبه وليس جزافًا.. لن أسمح لك بإهانة العشائر وتقاليدها.. نحن مجتمع عشائري متدين.. وأنت امرأة تربت في كنف الغرب الكافر وتنقلين إلينا بدعهم.

- "العشائر ظاهرة اجتماعية مفيدة.. تعلمنا الأدب وحسن التصرف والأخلاق الحميدة، ولكن يجب أن يخضع الجميع للقانون.. لا يمكن أن توضع عدة قوانين لدولة واحدة.. ستعم الفوضى ويفرض القوي قانونه على الضعيف كما يحدث اليوم.

بعض العصابات تفرض الإتاوات على الشركات باسم العشائر، وبعض الناس يرمون أنفسهم أمام السيارات ثم يقومون بابتزاز أصحابها ومطالبتهم بالفصل والدية.. دعوني أستعير بعض الأرقام من موسوعة الفصل العشائري".

تجيب وهي أقوى من ذي قبل وترد الصاع أصواعًا.. تدرج أرقامًا تقريبية لما يتقاضاه بعض الأشخاص المحسوبين على العشائر العربية الأصيلة من الدية خارج إطار الدولة والقانون.. المشاجرة من ثمانية إلى عشرة ملايين دينار، والقتل من مئة إلى مئة وخمسين مليون دينار، بالإضافة إلى حوادث غريبة وعجيبة يتفنن أصحابها في اختلاقها لمناهضة الناس وابتزازهم. وفي أغرب أنواع الفصل طالبت عائلة دكتور السونار بدفع مبلغ قدره سبعة ملايين دينار كدية نتيجة تشخيصه الخاطئ لجنس الجنين، حيث تبين أن

المولود أنثى لا ذكر كما حدده السونار في وقت سابق. وعندما يعجز الشخص عن دفع المبلغ المطلوب يصار إلى تسليم إحدى نساء العائلة بديلًا عن المال وتسمى "فصلية"، لتتحمل كل أنواع التعذيب والإهانة وتعيش في بيت ليس لها فيه أي حقوق والكل ناقم عليها وحاقد في ذنب هي لم تقترفه.

- هكذا يمر علينا القرن الواحد والعشرون، وعقولنا ما زالت متحجرة ومفاهيمنا توقَّف بها الزمن وانعدم.

تكمل أنهار كلامها بجراءة قد تطيح بها، مست ثوابت قد تنهي حياتها السياسية إن لم يتم تصفيتها أصلًا. عرت أشخاصًا يعتبرون أنفسهم أصنامًا تُعبد لكنها تراهن على وعي الشعب الذي قد ينفض غبار التخلف في أي لحظة ويكسر كل تلك الصنمية التي تحاصره.

يحاول الرئيس الاستعانة بجنوده في القاعة لإحداث فوضى كما فعلوا سابقًا لكن الخطة وُئدت؛ امرأة مسنة، كثرت الغضون في وجهها الشاحب، تربط خصلات شعرها البيضاء والقصيرة بربطات شعر صغيرة وملونة منتشرة مثل بتلات الورد، تتكئ على عُكَّاز، ثخينة تشبه مِنسأة الراعي، تقف وتهتف بأعلى صوتها حتى بُحَّ صوتها:

- اكشفي أوراقهم يا دكتورة.. يا صاحبة القلب الشجاع.. أيتها اللَّبوة الثائرة.. عرِّي فسادهم وعجزهم في إدارة الدولة.

تدخُّل هذه المرأة الغريبة خلط أوراق أبي زيدون.. يعمُّ الصمت في القاعة لبرهة، الكل ينظر إليها، رجل خمسيني يجلس في نهاية

القاعة، يقف هو الآخر ويؤيد ما قالته أنهار ويشجعها.

أحد أتباع الرئيس يشتم المرأة المُسنَّة ويصفها بالعار، فيحدِث الفوضى المنشودة ليعود الصخب في القاعة.

القاضي شرف الدين يضطر للتدخل، يفض الجلسة من جديد. ثم تؤجل المناظرة إلى الخميس، الثامن من أيلول لسنة ٢٠٣٩.

تخرج أنهار من قاعة المناظرة أكثر ثقة وثباتًا، تتحدث للصحافة عن رؤيتها وتحليلها للواقع وطرق الخروج من الأزمات التي ألقت بظلالها على حياة المواطن البسيط. تضع يدها بجراءة على الجراح، تطرح مصطلحات واضحة ودقيقة مثل "إجراء عملية عقد معدة لمعالجة الترهُّل في القطاع العام" و" تنشيط القطاع الخاص ورفض الإذعان للمتنفذين في الدولة" و"تمكين رجال أعمال شباب" و"توطين الزراعة والصناعة". يضج الناشطون في مواقع التواصل الاجتماعي بالمفاهيم التي طرحتها ويطلقون عليها لقب "اللبوة الثائرة". وعلى الرغم من أن هذه المصطلحات قديمة ونادت بها كل الحكومات المتعاقبة لكن لم ينفذها أحد وظلت مجرد كلام للاستهلاك الإعلامي وحصد أكبر عدد من الناخبين، لكن الناس يرون في الوافدة الجديدة على السياسة شيئًا مختلفًا، تفكر خارج دائرة الأحزاب الحاكمة، قد تكون طوق نجاتهم.

ترجع إلى البيت، وتخرس هاتفها وتجعله صامتًا، ترمي همومها جانبًا وتغط في نومٍ عميق. لم تصحُ إلا على صوت خادمة المنزل، وهي تحاول إيقاظها لتناول العشاء، تملش شعرها وتتمطى. تلقي

نظرة على هاتفها الذي يعج بالرسائل والمكالمات، أغلبها رسائل تهديد من مجهولين؛ إحدى الرسائل تقول: " كيف تتطاولين على أسيادك يا عاهرة في ثوب أستاذة جامعية"

بينما تقول أخرى: "سيكون حسابك عسيرًا، يا فاجرة".

تهتزُّ مثل سعفة في مهبِّ ريح عاتية، لم تعد تعرف كيف تخرج نفسها من عنق الزجاجة التي حُشِرت فيها من غير إرادتها. تجلس مع زوجها وقت العشاء، تخبره بما حصل، لم يكن متحمسًا لفكرة استمرارها في سباق الرئاسة. يدعوها للانسحاب والحفاظ على وظيفتها الجامعية وبيتها. يتكلم ببرود وهو يخلط السكر مع الشاي، يتكئ على الأريكة يصوب عينه نحو التلفاز دون أن ينظر إليها، ذهنه شارد خارج البيت يفكر في مشاريعه وعقود الاستيراد التي أبرمها مؤخرًا، بينما هي لم يعجبها الصقيع المرافق لكلامه وعدم مبالاته، تنهي النقاش تدخل لتساعد أزل على النوم وتقص عليها بتصرف قصة "كهرمانة والأربعين حرامي".

كان ياما كان.. في قديم الزمان.. كانت هناك طفلة صغيرة تدعى كهرمانة، ذكية وشجاعة تشبهك تمامًا، تساعد أباها في بيع الزيت في جرار كبيرة، في إحدى الليالي الباردة، سمعت أصواتًا غريبة، نهضت من فراشها ونظرت من الشباك، لمحت أربعين لصًّا يختبئون في الجرار....

- كم كان عمرها؟

تسأل أزل وهي تصارع النوم، تفتح أجفانها بصعوبة.

- أكبر منك بسنوات قليلة.

تقول وهي تكمل:

- أخبرت أباها وأعدت خطة محكمة، استجمعت عزيمتها وهزمتهم بقوتها وشجاعتها، سكبت الزيت الحار على رؤوسهم فراحوا يصرخون حتى أمسكت بهم الشرطة وأودعتهم في السجن، خلَّصت كهرمانة بلادها من الأشرار والتحقت ببطلات هذا البلد الكثيرات كعشتار وسميراميس. تنهي الأم قصتها.

- ماما، لقد رأيتك اليوم في التلفاز.

تقول وهي تتناوم في فراشها، تلتفت أنهار وتنظر إليها بابتسامة حنونة وترد:

- وما رأيك؟ هل كانت أمك مقنعة اليوم؟

- أتمنى أن تكوني الكهرمانة التي تسكب الزيت على السُّرَّاق.

تقول وهي تغمض عينيها الباسمتين، تطفئ الدكتورة النور، تغلق الباب وقد اكتسبت طاقة إيجابية من طفلتها، تشعر أنها على استعداد لمواجهة جيش جرَّار مدجَّج بالأسلحة وحدها دون أن يمس الخوف نياط قلبها.

*****

- هل أعجبتك أبياتي؟

يقول شهم وهو يقف أمام باب مكتب أستاذته، يتأبط حقيبته، ينظر إليها وهي تدنو منه مرتدية الثوب الأسود، توفي بِرِهانها له، وجهها الربيعي يشع وكأنه يواقيت تومض من بعيد.

- نعم.. لا.. أقصد.

تتلعثم لكنها تستدرك سريعًا:

- إنها محاولة جيدة لكنها ليس في محلها.. قلت لك هذه كلية الهندسة وليس ناديًا للشعر.

- لدي سر أبوح به.

يقول بصوت مسالم لا يرغب بالدخول في مساجلات، تنظر إليه نظرة شفقة، حاله يتغير يومًا بعد يوم من سيئ إلى أسوأ؛ لحيته الكثة غير الحليقة، سيماء الشحوب والوهن بادية عليه كمن فارق النوم وأدمن السهاد. تفتح الباب، تدعوه للدخول ثم تردف:

- ماذا بعد، يا شهم؟

- أنا أعاني كثيرًا عندما أعود إلى بيتنا في بابل.. البيت الذي بناه أبي قبل أن تحين منيته.

يحاول أن يكمل لكنه يتردد، يغيِّر رأيه، تنصت إليه باهتمام.

- لقد ارتكبت إثمًا أبيض وجئت للاعتراف به.

يطرق برأسه، يخرج سرًّا يجول في خاطره، يخبرها أنه هو من ورطها في المناظرة، يخبرها بأنه هو من ملأ طلب ترشيحها وزوَّر توقيعها، وأرسله إلى لجنة الترشيحات لانتخابات العراق ٢٠٤٠، وحشد الحشود دعمًا لها، جمع وأصدقاؤه العددَ الكافي لتخطي العتبة المشروطة لدخول المناظرة دون أن يستأذنها، كانت نيته سليمة، لم يقصد أن يسبب لها المتاعب، يقسم بأغلظ الأيمان أنه يؤمن بها وأنها ستغيِّر واقعًا مريرًا يعيشه البلد، يحاول أن يقلِّل من الجرم الذي فعله بمعرفته بأنها لم تكن لترضى لو طلب منها ذلك، كما أن الخطة آتت أكلها وعبرت المرحلة الأولى بتفوق.

- ما معنى أن يختارك قرابة ثلاثة ملايين شخص عبر الاقتراع الإلكتروني إن لم تكوني أهلًا لهذه المهمة؟

يقول وهو يزفر زفرة شديدة كأنه أزال همًّا جسيمًا راقدًا على صدره، لكنَّ براكين الغضب تتفجر في داخلها، تثور، تنهره وتزجره، تصرخ:

- لقد ورَّطتني.. هذا شنار وعار.

- أنا.. أنا لم أقصد.

لم تدعه يكمل، تُجهِز على جميع آماله في الاعتذار.

- إذا كررت تلك الألاعيب سأرفع فيك شكوى ليس لرئاسة الجامعة، بل للقضاء. اخرج من مكتبي، لا أريد أن أسمع المزيد.

تشير بيديها إلى الباب، يذهل من حدة جوابها، لم يقدِّر الأمور، ترد بقسوة، يخرج من غير أن يتفوَّه بكلمة.

تحاول عدم التفكير بما فعله طالبها، تأخذ أوراقها، وقبل أن تغلق مكتبها، تعثر على حقيبة، يبدو أنها لشهم تركها ومضى، يستدركها الوقت، حان موعد محاضرتها.

تقف وسط طلابها من جديد شامخة كشجرة ارتوت من ماء فرات، صلبة وقوية على الرغم من أن داخلها آيل للسقوط في أي لحظة، توضح الفرق ما بين التخطيط المحترف والعشوائي، لا تكترث لتهديدات من مسَّتهم كلماتها في أثناء المناظرة، ترمق مقعد شهم بطرف عينها، لم يحضر الدرس، ربما نيته حسنة لكنه سبَّب لها كثيرًا من الحرج وأقحمها دون علمها في صخب السياسة وضجيج روادها.

تكتب على السبورة مواصفات مدير المشروع الناجح، القيادة، الخبرة، المهارة، هو من يضع الخطط لتنفيذ الفكرة البسيطة وتحويلها إلى مشروع في وقت وكُلفة محدَّدين وضمن معايير الجودة العالمية على خلاف مدراء المشاريع الذين جاؤوا بالصدفة يتعاملون مع المخاطر والصراعات التي تعصف بالمشروع بعشوائية وبدون خطط مسبقة.. تستدير نحو طلابها، توجِّه لهم سؤالًا:

- افترض أنك مدير مشروع لإنشاء مجمع سكني، أحد المقاولين أضاف طبقة طلاء إضافية للجدران خارج الخطة المعدة مسبقًا. عند استفسارك عن السبب علَّل ذلك بأنه يعتقد أن طبقة الطلاء

الإضافية تصب في مصلحة المشروع. ما هو أدق وصف لهذه الحالة؟

إحدى الطالبات في الصف الأول تجيب:

- إدارة النطاق.

- كلا.. من غيرها يجيبني؟

- تزحف النطاق.

يجيب طالب آخر:

- جيد.. أنت تقترب من الإجابة، أريد إجابة أدق.

- الطلاء بالذهب؟

يقول آخر:

- رائع هذا هو الجواب.. الإضافات التي نضيفها على المشروع بسبب ذوقنا قد تسبب مشاكل وصعوبات كثيرة لاحقًا.

تنهي الدكتورة محاضرتها، تفكر في الجولة المقبلة من فصول مناظرتها أمام الأخطبوط أبي زيدون. تقصد المكتبة، تجمع المعلومات عن حكومته، تحتاج إلى معجزة للإطاحة به، يستلزم الأمر كثيرًا من الأدلة المباشرة. أغلب الناس هنا ينحازون إلى الحاكم الذي تظهر على جبينه زبيبة الصلاة المزيَّفة ويفضِّلونه على المرأة ناقصة العقل والدين وإن كانت لديها الإمكانيات التي تعبُر بهم إلى مرافئ الدول المتقدمة.

ترهق نفسها عدة ليالٍ، تبحث هنا وهناك عن أسلحة جديدة لتقتلع الطاغوت من الجذور، يقترب موعد المناظرة، يصيبها التوتر والقلق، تتصل بصديقتها إيمان، تدعوها إلى فنجان قهوة في مقهى رضا علوان. الدكتورة إيمان أيضًا أستاذ مساعد في كلية الهندسة، بيضاء مكتنزة وروحها مرحة، تجيد الفكاهة، لها القدرة على تغيير المزاج المتعكِّر في دقائق. تناقض شخصيتها شخصية أنهار الجدية والحازمة، تكمل إحداهما الأخرى، تعمد إلى تغيير الموضوع كلما تطرقت صديقتها إلى ذكر الأخبار السياسية أو ما حدث في المناظرة. تروم تقليل التوتر الذي بات جزءًا من حياة صديقتها لكن الأمر قد دخل فعلًا حيز الجدية والخطورة رغم أنف الجميع.

المقهى هادئ ويكاد يخلو من رواده وقت الظهيرة القائظ، صوت المرحوم كاظم الساهر يشدو بأعذب الألحان الكلاسيكية القديمة عبر مكبِّرات الصوت المنتشرة في أرجاء المقهى. يتجاذبان أطراف الحديث، تلقي إيمان نكتة، يضحكان بعفوية، ينهيان قهوتهما، يستقلان سيارة أنهار لكنَّ حدثًا ما لم يكن بالحسبان، تصدمهما سيارة مظلَّلة من الخلف. يترجل ثلاثة أشخاص ملثمون، يجرُّونها هي وصاحبتها جرًّا في الشارع على الرغم من مقاومتهما وصياح بعض المارة الذين يراقبون عن كثب دون تدخل خوفًا على أرواحهم، إلا أن فتاة تخرج مسدسًا من حقيبتها فاقعة اللون، وتطلق النار على سيارة الخاطفين بفدائية قل نظيرها، وكأنها من قوات التدخل السريع، يرتبك الخاطفون ويخلون سبيلهما ويلذون بالفرار.

يتجمع الناس وتهرع الشرطة إلى المكان، بعض الصحفيين يهرولون، يمنُّون النفس بسبق صحفي. الضابط يصطحب أنهار وإيمان والفتاة الفدائية المجهولة التي قالت إن اسمها "لامار" إلى المستشفى لمعالجة بعض الكدمات.

- من أنت؟ ولماذا تفعلين هذا معي؟

تقول أنهار وهي تنظر باستغراب إلى لامار بينما تضع الممرضة المعقم والضمادات على جراحها. تعدل لامار ثوبها وشعرها وهي تسترق النظر إلى ساقي أنهار وترد:

- أنا من أشد المعجبات بك وبأفكارك.. أتابع كل مقابلاتك وحواراتك.

تتحمس وتهتف وسط المشفى: "فليسقط الطاغوت.. فلتسقط الأصنام.. ولتحيَ اللبوة الثائرة".

تضع أنهار يدها على فمها خجلة وتهمس:

- كفى.. كفى.. اسكتي.

- سأظل أحميك إلى أن تفوزي أو أموت دونك.

- لدينا الآن "بدي كارد" يا أنهار.

تجيب إيمان وهي تنظر إلى لامار فارعة الطول والغريبة الأطوار.

*****

(٤) الطير المذبوح

تزداد أعداد أنصار المرشحة الجديدة في قاعة المناظرة وخارجها على نحو مطرد، أبوها يجلس في الصف الأول، يؤازرها، يرى فيها روح المحارب الذي يؤدي التحية لعلم بلاده بإجلال على الرغم من الجراح والتحديات، المرأة المسنة التي هجَتْ أبا زيدون تلوِّح لها، ترفع كل حين إبهامها إلى الأعلى تشجيعًا، الفدائية لامار والدكتورة إيمان وبعض من طلابها يشجعونها بحماس منقطع النظير؛ أحدهم رفع لافتة كبيرة كتب عليها: "لا تهابي أحدًا، أيتها اللبوة الثائرة". تشعر بالثقة أكثر لوجودهم بقربها، تشنُّ غاراتها على مواطن الضعف في حكومة أبي زيدون ومن يقف خلفه.

- نحتاج إلى أشخاص يتخذون قرارات حازمة وجريئة.. تبًّا للمحاصصة وبيع المناصب.

تقول وتستمر في استعراض خطتها التي بنتها على أسس منهجية وعلمية لخفض البطالة من أربعين بالمئة إلى أقل من عشرة بالمئة في غضون السنوات الثلاث القادمة. خطتها ترتكز على تحفيز القطاع الخاص والمختلط وتفعيل قانون حماية الملكية الفكرية الذي من شأنه رفد العراق بمئات الأفكار الإبداعية الجديدة وبناء رجال أعمال جُدد قادرين على إدارة المشاريـع بطريقة احترافية وفقًا لمعايير عالمية.

- الفكرة الجديدة إذا وُفرت لها الأرض الخصبة تصبح بذرة مشروع جديد، ويلتف حولها مجموعة شباب ليكونوا شركة منتجة، قمة العار والفشل أن نعطي شابا معونة اجتماعية ليحصل على قوت يومه ويعيش كالمتسوِّل، يجب أن ندفعه ليكون منتجًا في المجتمع، يجب أن يعمل ويأكل من عمله.

تقول وعيناها تبعث رسائل كلها تحدٍ لنظام سياسي هَرِم ومتآكل، ثم تردف:

- إذا شاركت الدولة مجموعة من الشباب الواعي لإنشاء مشروع ما، فسنكوِّن شركة قطاع مختلط، ونخطو الخطوة الأولى في الطريق للقضاء على البطالة.

تغادر المنصة وتترك خوفها وراءها، تتجول على المسرح بانسيابية وهي تتحكم بصوتها وتعابير وجهها وجسمها، مما أثر بعمق في الحاضرين والمشاهدين عبر الأثير والقنوات المتلفزة وسط ذهول أبي زيدون وأتباعه. لقد تحررت الفراشة من شرنقتها.. ثم تكمل:

- لكن قبل البدء بأي عملية إنفاق، يجب أن تتحقق ثلاثة أمور:

أولًا: محاربة الفساد؛ وذلك بإنشاء دولة إلكترونية تراقب الصلاحيات وتوثِّق كل عملية وحركة يجريها الموظف.

أكثر ما يخشاه المفسدون في الأرض هو التطور العلمي والتكنولوجي؛ لأنه يفضح دجلهم وينظف العيون التي يذرُّون الرماد

فيها لتمرير صفقاتهم المشبوهة، سينخفض مركز العراق على مؤشر الفساد الذي تنشره منظمة الشفافية الدولية عشرين مركزًا على الأقل، سيتغير المركز الذي تحتله البلد اليوم، وهو ١٦٩ من بين ١٨٠ دولة، بمجرد ربط مفاصل الدولة بعضها ببعض وتوثيق العمليات التي يجريها أي موظف في الدولة. لنأخذ مثالًا بسيطًا، مُدخِل البيانات لا يمكنه رفع بيانات طلب الحصول على الجواز إلكترونيًّا إلى الموظف الأعلى إذا لم تُستكمل النواقص؛ ومن ثَمَّ إذا قام بأي تلاعب فسُيوثَّق هذا التلاعب وينكشف بسهولة عند أي عملية تدقيق بسيطة.

تتطرق على عجالة إلى الفقرة الثانية التي من شأنها توفير الانتعاش الاقتصادي، وهي توفير بيئة جاذبة للاستثمار، تتكلم عن حماية المنتج، وكذلك حماية الملكية الفكرية، وإنشاء نظام مصرفي محترم وتحفيز الناس لإيداع أموالهم لدى المصارف.

- لإكمال المشروع يتوجب حصر السلاح بيد الدولة، وهذا لن يحدث إلا بالكف عن انتخاب الأحزاب التي تمتلك مجاميع مسلَّحة، الكف عن إعطائهم الشرعية لهم ولميليشياتهم..

يقاطعها أبو زيدون لكنَّ صوتها يعلو فوق صوته:

- دعني أكمل سيدي الرئيس.. ما زلت أملك بعض الوقت.

تستدير نحو الجمهور وتهتف مع إيماءات حماسية:

- أنتم أمام مسؤولية تاريخية، كلكم تعرفون المجاميع المسلحة

ومن يقودها، الأمر بسيط، لا تنتخبوهم من أجل حياة حرة لكم ولأطفالكم.. من ينتخب مسلحًا أو قاتلًا فهو شريكه وليس ضحية.

هند مندهشة من التطور السريع في أداء أنهار، يتملَّكها الصمت لبرهة ثم تستدرك، تتوجه نحو أبي زيدون، تعطيه فرصة الكلام والرد، يجتر كلامه القديم ووعوده الممزقة. يؤكد أنه سيبني عشرات الملايين من الوحدات السكنية، وسيمنح كل عائلة بيتًا حديثًا وسيارة وفرصة عمل كريمة، ولن يبقى ثمة عاطل عن العمل، وأنه سيفعِّل مشروع مترو بغداد السريع المتوقِّف منذ سنين، وسوف يبني برج بغداد الأكبر في العالم، وسيعوض نقص الكهرباء بافتتاح محطات توليد كهرباء بخارية وغازية عملاقة وحديثة، وسوف يصدِّر الفائض من الطاقة الكهربائية إلى خارج القطر.

يقول.. ولكنه لأول مرة يشعر بالضيق والتوتر وهو يروي قصصه الخيالية التي ما عادت تقنع حتى الأطفال؛ مثل قلاع الرمل التي سرعان ما تنهار بمجرد أن تلامس أمواج البحر. لم يكن لديه المزيد، لم تكن لديه اللياقة الكافية لمجاراتها، تشعر هند بتوقف أبي زيدون عن الكلام، تحاول إبقاء لهيب المنافسة مستعرًا، وحصد ملايين المشاهدات، تطلب منه أن يسأل منافسته سؤالًا، يشاور مساعده، يعدِّل سترته ويوجِّه كلامه مباشرة إلى أنهار:

- أرغب في أن أسأل الدكتورة المصون، ما الذي فعلتِه خلال فترة عملها كأستاذة في جامعة بغداد، هل طورت الجامعة قيد أنملة وهي مؤسسة صغيرة مقارنة بدولة فيها آلاف المؤسسات مثل

جامعة بغداد؟

يحاول أن يسفِّه كلامها ويضعه في خانة المستحيل، يردف بتشنج:

- وصل إلى مسمعي أنه في أحد الاجتماعات، دعاها وزير التعليم ليسمع منها برنامجًا قد ينفع في تطوير جامعتها لكن هل تعلمون ماذا حدث؟

يتقدم مخاطبًا الحضور وهو يبتسم ويقول باستهزاء:

- لقد تركت الاجتماع وهربت.. نعم أيها السادة صدقوني.. تركت الاجتماع وهربت.. تخيَّلوا معي أن البلد يتعرض إلى نكبة أو حرب مميتة، ماذا ستفعل؟

يدخل في نوبة ضحك هو ومساعدوه، ثم يكمل وهو يمسح دموع الضحك التي ملأت مقلتيه:

- "سوف تتبوَّل في سريرها وتهرب من حيث أتت، تفر إلى فرنسا، إلى البلد التي يوفر لها حياة ناعمة.

أنا سياسي منذ أكثر من ثلاثين عامًا ومن خلال خبرتي أؤكد لكم أن كلامها مجرد أحلام وردية لفتاة مراهقة، حبر على ورق غير قابل للتطبيق".

يتفاعل الحضور معه، تهتف أم دموع وهي ترفع صور أطفالها الثلاثة: "أولادي فداك يا زعيمنا المفدَّى.."

تفرك أنهار أرنبة أذنها وتجيب:

- "لم أهرب من اجتماع وزيرك، كان لدي ظرف طارئ، تعرضت ابنتي لحادث؛ لكن أجبني سيادة الرئيس، كيف أصبح تسلسل جامعة بغداد العريقة متأخرًا ضمن قائمة الجامعات الرصينة في العالم وهي التي كانت مضرب الأمثال ومصنع العلماء؟

ثلاثمائة ترليون دينار أنفقت على الموازنة الاستثمارية خلال الأعوام الخمسة المنصرمة دون تحسُّن في المؤشرات، بل زاد الطين بِلَّة أن العراق خرج من مؤشر التعليم العالمي على الرغم من إنفاقه عشرين ترليون دينار لتحسين واقع التعليم، وثمة مئات الرُّخص لإقامة مدارس وجامعات أهلية تشوبها شبهات فساد؛ تحولت هذا الجامعات إلى دكاكين لبيع الشهادات".

تستدير نحو الحضور وتوجِّه إليهم كلامها:

- مصابنا كبير أيها السادة، كلنا مشتركون في جريمة.. نحن نئِد مستقبل أبنائنا عندما نستخرج خيرات الأرض كلها ثم نقترض لنسد العجز الحاصل في موازنتنا نتيجة إخفاقاتنا وفشلنا في إدارة الدولة. صدقوني ستلعننا الأجيال القادمة.

تخرج من جيب سترتها ورقة، تستعرض أرقامًا فلكية عن حجم الدَّين العام للدولة، لم يبقَ بنك أو شركة في العالم إلا وهرع السياسيون يستلفون منه.

تسأل من جديد:

- لماذا تعاني ميزانيتنا العامة من عجز كبير ونحن نصدِّر النفط بلا توقف؟ لماذا هذا الدَّين؟ من المستفيد؟

ينفعل الحاضرون، يقف بعضهم ويصفق بحرارة، حتى القاضي شرف الدين يخرج حسرة خفية ويتأوَّه مما سمع.

يجيب الرئيس بحنق:

- "أكبر الدول تقترض من أجل مشاريع التنمية، لا يوجد ضير في ذلك.. أيها الناس أدعوكم لانتخابي.. لكيلا تعصف بالبلاد الحروب والمفخَّخات والفتن.

فقط انتخبوني.. لن يبقى فقير في البلد.. أكرر إذا انتخبتموني أعاهدكم أنه لن يبقى فقير في بغداد وباقي المحافظات".

تقترب منه، تقاطعه مخالفة لقوانين المناظرة:

- سيد أبا زيدون، هل تنوي قتل الفقراء للقضاء على الفقر؟ فهذه هي الطريقة الوحيدة التي قد تفي فيها بوعدك.

يغص الحاضرون بموجة ضحك ويستهزئون بوعوده التي طالما كررها في كلِّ محفَل.

- لدينا ثلاثة أسباب تجعلنا أنا والشعب لا نصدقك.

تكمل أنهار وسط تقهقر الرئيس، ينزل الميكرفون من يده، وينصت إليها بانهزام وهي تسترسل في طرح أسبابها الثلاثة؛ السبب

الأول أنه كرر تلك الوعود في خلال سنوات حكمه العجاف ولم يحقق شيئًا للناس، بل زاد الأمر سوءًا على سوء.. وأكيد أن المجرَّب لا يجرَّب؛ والثاني أن موازنة العراق بوضعها الحالي يقيِّدها عجز رهيب، تم سدُّه بالاقتراض من جهات دولية مختلفة مثل البنك الدولي وغيره بفوائد تسدَّد طوال السنين القادمة ولا يوجد أي فائض للتنمية والبناء؛ السبب الأخير أن طاقة تصدير النفط وهو المصدر الوحيد لموازنتنا العامة قد حُدِّد سقف إنتاجه من قبل منظمة أوبك؛ ومن ثمَّ سيكون هناك واردات ثابتة من النفط لا يمكن زيادتها. إذا كان هناك حدود للواردات وترهُّل في الإنفاق فستزداد فجوة العجز، ولن يكون هناك إعمار أو فرص لوظائف جديدة.

يلتفت أبو زيدون إلى مساعديه، يستنجد لفكِّ الحصار عنه، لم يستجب أحد؛ فقد أصبحت لعبة إحداث الفوضى في القاعة لعبة مكشوفة. يبلع ريقه، يحاول الصيد في الماء العكر، يحارب حتى الرمق الأخير، العزُّ الذي يتنعم فيه هو وعائلته في خلال فترة حكمه يستحق الاستبسال، الجزيرة التي اشتراها في أرقى المنتجعات تغريه إلى حد الاستماتة من أجل الكرسي؛ كما أن الزعيم هنا لا يخرج حيًّا، تجرُّ جثته في الشوارع، أو يشنق في الميدان العام، أو يرمى بالرصاص، إنه طريق باتجاه واحد لا رجعة فيه، الرئيس في بلادنا هو السجان والمسجون، الحاكم والمحكوم والمقيَّد داخل القلاع والقصور.

يطلب من لجنة القضاة تثبيت مخالفة ضد منافسته لمقاطعتها إياه وتعديها على وقته، يناشد الوزراء والجهات والأحزاب التي تقف وراءهم بإقامة دعاوى قضائية ضد الدكتورة أنهار لتشهيرها بشخوصهم وإفشائها معلومات خاصة بالحكومة وقد تكون سرية. يرعد ويزبد ويصرخ:

- "لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة"، أليس هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم؟ ألا تخافون العقاب وأنتم تخالفون وصايا رسول الله؟ انظروا كيف تتصرف بصلف وصفاقة.. انظروا إلى لبسها، إنها التي قال عنها الحبيب المصطفى: "النساء حبائل الشيطان"، إنها تعلِّم بناتنا التمرد والتنمر والانحلال.. هؤلاء هن الكاسيات العاريات المتبرجات.. الله أكبر.. الله أكبر.. سوف تنقلب الدنيا قريبًا.. سوف تشرق الشمس من المغرب.

يدغدغ مشاعر المتدينين بجهل، يدس العسل بالسم، يُغلِّف الحق بالباطل، يلوي عنق النص بما يخدم أهواءه، يستخدم الحيل والنِّيرَنجات. يبتعد عن لغة الأرقام، يتناسى أن بعض أعظم الدول من حوله تحكمها امرأة، يمحو بلدًا تاريخه العريق يخبر العالم أن المرأة كانت ملكة وقاضية، بل كانت أمًّا للملوك وأمًّا للمؤمنين، بل إنها كانت آلهة تُعبد ومصدرًا للخصوبة والحياة.

يفض القاضي شرف الدين الجلسة ويحدد بعد غدٍ موعدًا لجلسة جديدة بعد كرٍّ وفرٍّ وسجال بين المتنافسين. لأول مرة تشاهد المناظرة أعداد وصفت بالقياسية حتى من خارج العراق،

وبعد أن كانت تصل أنهار رسائل تهديد فقط، باتت تصلها عروض مغرية. أحدهم أرسل إليها: "نريد وزارة الدفاع مقابل دعمنا لك والتخلي عن دعم الرئيس" في حين وصلت رسالة أخرى تقول: "سنحرك الشارع وننظم مظاهرات مليونية إذا حصلنا على وزارتي النفط والداخلية.."، الرسالة الأهم التي وصلت إليها مفادها: "نحن من نعيِّن الرئيس نخلعه في هذه المنطقة وقد أعجبنا أداؤك.. يجب أن نلتقي لمناقشة بعض الأمور.."

تهمل جميع الرسائل، تنفذ بجلدها من المراسلين المتربصين والذين يتصَّيدون فلتات اللسان. تخرج مسرعة هي وصديقتها إيمان ثم التحقت بهما لامار، تستوقفها لافتة رفعها رجل أشيب، سَمَلُ الثوب، أمام مبنى المناظرة، كتب عليها: "لم يعد لدينا أمل غيرك، أعيدي لنا الوطن المسلوب وأطفالي الذين قتلهم الرئيس بدم بارد".

الوقت أصبح مناسبًا لقدح شرارة تغيير الوجوه الكالحة المتهرئة وربط البلد بكل ما هو جديد ليأخذ مكانه الطبيعي بين الأمم.

تحشر لامار نفسها بين الصديقة وصديقتها وتشرب الشاي في بيت أنهار على الرغم من أنها كانت مدعاة للريبة، نظراتها غريبة؛ تدقق في مناطق حسَّاسة كالصدر والأرداف وما بينهما. يُظن أنها تفضل النساء على الرجال لكن موقفها البطولي يشفع لها فقد آثرت الموت لحماية الدكتورة، كما أن ضخامتها واستخدامها الجيد للسلاح يضيف دعمًا إضافيًّا للمرشَّحة الجديدة التي لا تملك حماية وسيارات مصفَّحة.

يرجع زوجها إلى البيت، يسلم على النسوة المجتمعات ويرتاب من تجمعهن، كان يراقب من بعيد تهديد زوجته للرئيس ومصالح حيتان الفساد في البلد، عدة جهات اتصلت به وطالبته بردع زوجته المندفعة إلى المجهول، وهي تحاول دسَّ يدها في أوكار الدبابير غير مبالية بلسعاتها السامة والمميتة في بعض الأحيان.

إيمان تجرُّ لامار وتستأذن بالخروج، تفهم نظرات أحمد، يقترب من أنهار، يجلس بجانبها، يتحدث معها، يحاول ثنيها عما تنوي فعله دون جدوى. يشرح لها أن طريق الرئاسة قد يتسبب له بخسارات فادحة، وقد ينتهي الأمر بإفلاس شركته لكنها لم ترتدع. علاقتهما منذ بدايتها كانت بين حلٍّ وعقدٍ؛ فهو يبيح كل شيء من أجل الوصول وهي تبالغ في وضع ثوابت ومحددات لكل شيء.

- أحمد.. لن أنسحب.. سأواصل حتى النهاية.

تقول وهي تشيح النظر عنه، تلتفت نحو أزل التي تلعب بكل براءة مع درة غير مكترثة بصراعات الجبابرة من حولها.

يقف، يشعر بعدم جدوى الحديث فهو رجل عملي لا يضيع الوقت إلا في مكانه الأمثل.

- تذكّري أني حذَّرتك.

يرمي تلك الكلمات ويغادر.

*****

تشعر بالذنب وتأنيب الضمير، قد تتسبب في فصله من الجامعة. تقرأ إنذارًا نهائيًّا لشهم بالطرد بعد أن وصلت مرات غيابه الحد الأعلى، تنظر إلى حقيبته الجلدية، تتمتم: "قد يكون مستفزًا لكنه لم يكن مؤذيًا كما أن أزل تحبه كثيرًا"، تتذكر كيف أن ابنتها لا تلعب إلا معه عندما ترافقها إلى الجامعة، في إحدى المرات وجدتهما يصفقان ويغنيان وسط ساحة الجامعة الرئيسية والطلاب متجمعون حولهما، استشاطت غضبًا لكنها لا تستطيع أن تنكر الفرحة التي ارتسمت على وجه ابنتها.

تتصل بإدارة الجامعة، تبحث عن وسيلة للتواصل معه، هاتفه مغلق، وليس لديه أصدقاء يستطيعون الوصول إليه، تفكر في زيارته، تتصل بإيمان، تسر لها بنيَّتها.

- زيارته قد تسبب الإحراج لنا وله، لم يسبق أن زارت أستاذة طالبها لتسأل عن سبب غيابه المتكرر.

تقول إيمان والتردد يقفز بين طيات حديثها.

- لقد تصرف بتهوُّر وأساء إليّ، لكني لن أسامح نفسي إذا ما ضاع مستقبل شهم بسببي.. كما أنه ترك حقيبته في مكتبي.. وقد تحتوي على أشياء مهمة...

تقول وعينها المتوسِّلة تلحُّ على إيمان لمرافقتها، ترضخ بعد تردد.

تهرب أنهار من رادارات الصحفيين الراصدة، تخرج من الباب الخلفي لمنزلها، تغطي عينيها بنظارات كبيرة ومعتمة، تستقلُّ سيارة أجرة، تصحب صديقتها، تقصد منزل شهم في مدينة الحلة. والده أكمل بناء منزل صغير في إحدى العشوائيات قرب آثار بابل قبل وفاته بمدة قليلة، يصلان منهكتين بعد أن أضناهما البحث عن منزله، البناء لم يكن نظاميًّا، الطرق ملتوية وغير معبَّدة.

- شهم، هل أنت بخير؟ وضعك بائس.

تقول وهي تنظر إليه يفتح الباب، شكله يشبه خيالًا شاحبًا، وجهه تعتريه صفرة وعيونه جاحظة.

تفاجأ هو بقدومهما من غير موعد، يرد بارتباك:

- أنهار.. دكتورة إيمان.. أنا.. أقصد، كيف عرفتما عنواني؟

- شهم، ما بك؟ أنت طالب لدينا وبياناتك محفوظة في الأرشيف.. هل ستدعنا نقف طويلًا عند الباب؟

تقول إيمان بصوت معاتب عوانٍ، بين المتعالي بوصفها أستاذة والحنون بوصفها أختًا كبيرة، وهي تناوله حقيبته التي أضاعها في مكتبها.

تدخلان بيته المتواضع، يسكن وحده بعد أن توفي والداه. لم يستطع بيع المنزل كما أوصياه، تلمح أنهار حمالة صدر وردية مرمية على كرسي في أحد أركان غرفة الضيوف، ينتابها شعور سيئ، تشيح بعينيها عنه، يلحظ هو ذلك، يلقي على الكرسي قطعة قماش.

- كان خليقًا بك أن لا تترك الجامعة ومستقبلك مرهون بها.

تقول له إيمان لكن كلامها في وادٍ وهو في وادٍ آخر، يرد والعرق يتصبب منه:

- حسنًا، يجب أن ترحلا من هنا، المكان غير آمن.

- متأسفتان كثيرًا أيها الطالب الجامعي، يبدو أننا جئنا في وقت غير مناسب، لنتركك غارقًا فيما أنت فيه، تطارح الغرام، فالجامعة لم تعد مهمة بالنسبة لك.

تقول أنهار وهي تشير إلى حمالة الصدر المخبأة، تقف وهي تستشيط غضبًا، تستعد للرحيل نادمة على زيارة لم تجنِ منها سوى مزيد من خيبات الأمل.

- أنهار، الأمر ليس كما تظنين.. إنه **بازوزو**.

- ماذا؟ ماذا تقول؟

يحاول شهم أن يفسر لهم سره المعقد، كلما يعود من الأقسام الداخلية إلى المنزل في بابل يسمع أصواتًا غريبة كل ليلة، أصواتًا تؤرق منامه، تحيل أحلامه إلى كوابيس، يرجوهما الرحيل فورًا والثقة به، يقسم أنه بريء، وأنه سوف يوضح لهما كل شيء في الوقت المناسب، الفضول يقتل أنهار، تحتاج إلى تفسيرات لكنها تلمس توسل عينيه الغارقتين في بحر الأسرار. لم يعد لديها وقت للجدال، البقع الحمراء تطفح على جلدها، تحاصرها، تنذر بوجود خطر ما، تصاب بالذعر، تجري مسرعة وخلفها إيمان، تفكر بابنتها،

يخالجها شعور مخيف، تعود مسرعة إلى المنزل، لم ترفع قدمها عن دواسة البنزين، تدفع باب المنزل الموارية، الهلع يعتريها، تدور في المنزل مثل المجنونة وهي تغمغم:

- أزل.. أزل.. أين أنت، حبيبتي؟

لا أحد يجيب.. بعض الأثاث محطم وآثار عنف بادية في كل مكان، الدم يغطي المطبخ وأم عدنان المربية مذبوحة وتسبح في دمها.

الذعر يسيطر عليها، تصعد السلم إلى الطابق العلوي حيث غرفة ابنتها، يتبخر الدم من وجهها، ابنتها الوحيدة ذات السنوات السبع مسجاة على الأرض ودمها لطخ ثوبها البنفسجي ذا الحواشي المزركشة.

تلدم صدرها، تنتف شعرها، تنشع وترفض رئتاها استقبال الهواء مثل سمكة خرجت من الماء. تنهار وتسقط أرضًا، تغيب عن الوعي، تصرخ إيمان، صياحها جلب الجار أبا درة، يتصل بزوجها والإسعاف.

تنقل إلى مستشفى الجادرية. تعج الصحافة المحلية والعالمية بهذا الخبر، أزل الطفلة المذبوحة صورتها تتصدر الصفحات الأولى. ناشطون يعتصمون أمام مبنى مجلس الوزراء يطالبون بإيجاد الجناة وإنزال القصاص بهم.

أي عمل خسيس ينم عن إفلاس صاحبه.. الجناة وضعوا رسالة صغيرة تقول: "لا تلعبي مع الكبار.. يا مرشحة الصدفة".

تشكل وزارة الداخلية لجنة رئيسية تتفرع منها ثلاث لجان ثانوية، تتبع أسلوب التمييع، لتضيع الأدلة ويهرب الجناة.

ضابط مبتدئ يجري تحقيقًا مع أنهار التي عاد إليها وعيها، لكن انهيارًا عصبيًّا يصيبها، يجعلها لا تعي ما حولها. كثير من الأقارب والأصدقاء وشخصيات عالمية زاروها في المستشفى لكنها لم تشعر بوجودهم. عينها منتفخة وبياضها أحمر من فرط ما أدمعت حتى لم يعد في مقلتها دمع تذرفه على فراق فلذة كبدها وروح الروح. تكابد الدنف، تبحث عن أي فرصة للهروب من الواقع فتعتريها رغبة ملحَّة في النوم، تبحث عن دواء يعجِّل نومها، يرسلها إلى عالم الأحلام البهيم، لعلها تلتقي بأزل، تتمنى أن تنفق كل ما لديها من أجل دقيقة أخرى معها، تفزع مرعوبة كلما استيقظت واستعادت ما حدث.

الطبيب ومَن حولها يعتقدون أن خطبًا ما أصاب عقلها. زوجها تأثر أيضًا لكن ليس بنفس الدرجة التي تأثرت هي بها. لم تتحدث إليه.. لم تكن لديها الرغبة في الحديث، تشعر بعينيه تجلدانها وتلقي اللائمة عليها في مقتل ابنتيهما.

*****

(٥) السفر إلى مصر

مضت عدة أسابيع على الحادثة. تأجلت المناظرة إلى إشعار آخر بسبب ظروف أنهار التي لم تقوَ على العودة إلى بيتها، تفضل بيت أبيها بعد أن خرجت من المشفى. تتشح بالسواد، متكوِّرة فوق كرسي في أحد أركان غرفة الضيوف تستقبل المعزِّين. ليس لديها رغبة بالحياة، تتملكها رغبة قوية بالانتحار، تتعاون إيمان مع لامار لإخراجها من غياهب الاكتئاب والانهيار النفسي، ترتب عدة مواعيد مع طبيب نفسي ماهر، فيطلب الالتزام بالعلاج ويقترح تنظيم رحلة ترفيهية خارج البلد لتفادي عودة الذكريات المؤلمة ودخولها في أزمة اكتئاب حادة لا مناص منها.

ترضخ لإلحاح أبيها وصديقتيها، تقبل السفر، أحمد يعتذر لانشغاله بالعمل، يقع الاختيار على مصر، هواؤها عليل وسكانها طيبون، أنهار تسير معهم لكنها مغيبة، الدواء يمنعها من الانهيار، تفشل كل محاولات إيمان وأمازيحها في إخراجها من محنتها.

المحطة الأولى شرم الشيخ، الرمال الحارة ومياه البحر الأحمر الدافئة، الشعب المرجانية الخلابة، وأشعة الشمس اللاهبة، لامار تجر أنهار بيديها القويتين لكنها ترفض، تختلي بنفسها فوق رابية من الصخور المواجهة للبحر، كل الذين من حولها يحاولون مساعدتها،

ولكن الذي تمزق هو فؤادها، وديدن الفؤاد أن يعالج ذاته بذاته بدون مساعدة خارجية. تسأل الموج عن عروسة البحر التي خطفتها الريح، تقف وهي تنظر إلى أبيها من بعيد نظرة غريبة كأنها تودعه، يفهمها الأب، يجري نحوها، يتحول الكهل إلى شاب من أجل ابنته، يصرخ:

- أنهار.. لا تفعلي ذلك.. أرجوك لا تفعلي يا ابنتي.

جميع من حوله سمع صراخه إلا هي، تفضل أن تلقي بنفسها من أعلى التلة، لم يعد لحياتها معنى، إنها تكابر من أجل لا شيء، تستسلم للبحر وهو يبتلعها دون أن تحرك يدها، تلك التي أفنت عمرها تقاوم الاستسلام وترفض الخضوع.

يتراءى لها وجه أزل، تمد يدها نحوه، تحاول أن تلمسها، تجتهد ليخرج صوتها لكنها تختنق، تلمح مسخًا تملأ وجهه الدمامل المتقيحة، ينبري متجهًا نحو ابنتها يريد بها شرًّا، البحر يجرها نحو الأسفل ومياهه تملأ قصباتها الهوائية، لا تملك أن تتنفس، يمسك بها رجل قوي، لم يكن أباها، كانت تشعر باضطراب قلبه المرتجف وهو يصرخ:

- لا تؤذِها يا بازوزو، أرجوك سأفعل ما تطلبه مني، أرجوك لا تدعها تموت.

يقبِّلها بعنف قبلة الحياة، يدفع الهواء الحار في فمها، يعيد إليها دقات القلب، تمعن النظر في وجهه، إنه شهم، تستسلم لقبلاته،

تمسك شعره، تداعب خصلاته المبلَّلة وهي ما بين الوعي واللاوعي.

يصل أبوها، يجثو على ركبتيه لاهثًا، يتكلم بصعوبة:

- شكرًا لك لامار.. لقد أنقذت ابنتي.. حمدًا لله.

تفتح أنهار عينها، تدقق النظر في الشخص الذي أنقذها، إنها لامار، تحدِّق بها من جديد، فعلًا إنها لامار، تبعد يدها عن شعرها، تجيل ناظرها، تقتفي أثر شهم فلا تجد له أثرًا.

- حمدًا لله على سلامتك.. ماذا دهاك يا صديقتي؟

تقول إيمان وقد وصلت متأخرة، تربت على كتف لامار وتردف:

- هذه المرة الثانية التي تنقذين فيها أنهار.. فعلًا تستحقين لقب المنقذة.

- لا يمكن أن أبقى أتفرج على صديقتي وهي تتهاوى من أعلى الصخور، كنت أسبح بالقرب منها.

تقف لامار تنفض الرمال العالقة بيديها ورجليها، تنظر إلى أنهار، تقول وهي تلوِّح بيدها:

- لن ندعك تموتين.. رغمًا عنك، لن ندعك تموتين.

يضحك الجميع بينما تظل هي متحيرة لا تميز بين الحقيقة والخيال، تنظر إلى لامار وتسألها:

- هل تعرفين شخصًا يدعى بازوزو؟

ترتبك لامار، تتحرك عيناها بسرعة، تجيب:

- باز.. بازوزو..

تغير الموضوع:

- لقد وصل المسعفون..

تلوح لهم بيدها وتضيف:

- أنهار؛ إنك متعبة جدًّا، يجب أن تأخذي قسطًا من الراحة، لا تشغلي تفكيرك بأي شيء.. حاولي أن تستمتعي، نحن على البحر، والجو في غاية الروعة.. نحن في مصر أم الدنيا.. تعود إلى الفندق، مرهقة ومشوَّشة البال، تجد قصاصة ورقة تحتوي على مجموعة أبيات، تصرخ: إنه شعر شهم.. أنا متأكدة.. إنه شعره..

تختلط لديها المشاعر، الفرحة والخوف من المجهول، تقرأها بتلهف:

لا تخفي دموع الحزن يا لبوتي الثائرة..

وابكي كلما اشتقتِ للبكاء

فالحزن ليس عورة..

ودموعك ليست عورة..

لا يولد الإبداع إلا من خاصرة الألم

ولا تزهر الأرض إلا من دموع السماء

تعيد قراءة الأبيات مرات عدة، تضم الورقة إلى صدرها، تشعر بالأمان، تفتح في عقلها حلبة لصراع آخر، حب قديم ينهار بسبب الانشغال ومشاكل زوجية لا منتهية وحب يتقد تحت رماد الغموض. صوت في داخلها يعارض الحب الدخيل، تحاور نفسها، "أي عار هذا؟ كيف أعشق رجلًا آخر وأنا متزوجة وصورة ابنتي المقتولة تتراءى في مهجتي؟ يجب أن لا يرى هذ الحبُّ النورَ، يجب أن يكون نسيًا منسيًا".

تحضر قهوتها المُرَّة، تفتح حاسوبها المحمول، تسأل السيد جوجل عن "بازوزو" تقرأ باستغراب ما تجده، "بازوزو هو الشيطان في أساطير بلاد الرافدين، يركب الريح الساخنة الآتية من الصحراء بحثًا عن الماء.."

"أساطير وشياطين، ما هذا الهراء؟!"، تتوقف عن البحث، طرق الباب يقطع هذيانها، إيمان تستعجلها لارتداء ملابسها وحزم حقائبها، الجميع يتهيأ للانتقال إلى القاهرة.

*****

القاهرة تشبه بغداد كثيرًا، تعاني من تضخم سكاني فظيع، واحتباس حراري قاسٍ، الحرارة وصلت إلى مستويات غير معهودة، النيل يعاني من شُحِّ المياه بعد أن بنيت عدة سدود على منابعه.

الجنيه يتقهقر أمام العملات الأخرى، أغلب المصريين دخلهم منخفض، يصارعون من أجل لقمة العيش لكنهم شعب متجدد الشباب بعد أن غزت الشيخوخة العالم، مرض الزهايمر يكتسح العالم لكن نسبته أقل في تلك الأرض الولادة.

اليوم الأول لهم في القاهرة كان متعبًا، السفر من سيناء إلى القاهرة، ثم التجوال وسط البلد، الجميع متفق على إجبار أنهار على الخروج من محنتها، يجربون عصير قصب السكر وطبقًا شهيًّا من الفول المدمس والطعمية عند الفطور، ثم ملوخية الأرانب عند الظهيرة، لا يتكلمون في السياسة أبدًا وإن حاولت أنهار منعوها وغيَّروا الموضوع، لكنها تظل تفكر في شهم كلما نظرت إلى عيني لامار، تحدث نفسها: "يا إلهي إنهما نفس العينين.."

- هل سمع أحد خبرًا عن شهم؟

تقول أنهار لصديقتيها وهن على طاولة الفطور، تومئ إيمان بالنفي، لامار تكتفي بالصمت.

- لماذا تسألين؟ هل من جديد؟

تسأل إيمان، تتهرب أنهار من الإجابة، لا ترغب في البوح بأمر القصيدة لكنها متأكدة أنه هو، إنه أسلوبه وبصمته.

المتجوِّل ما بين أهرامات الجيزة يشعر بالرهبة وهو يقف ضئيلًا أمام هذه الصروح العملاقة، تصر لامار أن تمتطي بعيرًا، يضحك الجميع من طريقة ركوبها ومسيرها على ظهره، يد حنونة تمسك يد أنهار، إنه أبوها، يطلب منها السير قليلًا مبتعدين عن المجموعة، يروي لها حادثة مرت به في أيام الصبا والشباب.

كان ضابطًا مغوارًا لا يهاب الموت، النجمة التي على كتفه تعادل الدنيا وما فيها، عمل في جهاز حسَّاس يدعى الأمن الوطني آنذاك، رئيس الجهاز شكل لجنة لتقصي الحقائق في مقتل متظاهرين في ثورة أكتوبر ٢٠١٩، التي اندلعت في بغداد وبعض المحافظات الجنوبية احتجاجًا على سوء الخدمات والفساد والمحاصصة ونهب ثروات البلد.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

تقول له وهي تصغي باهتمام، يجلس على المصطبة، وجهًا لوجه أمام أبي الهول، يطلب منها الانضمام إليه، يمسح وجهه ثم يكمل:

- كنا ثلاثة ضباط، العقيد أرسلان، والنقيب كريم وأنا، كانت مهمة معقدة وشائكة وسط التجاذبات والمصالح الفئوية الضيقة، قرابة ألف متظاهر لقوا حتفهم وعشرة آلاف أصيبوا بجروح، كان هناك استخدام مفرط وغير مسؤول للقوة المميتة، الكل أقرَّ بذلك لكن لا مسؤول، الطبقة السياسية مثل مسخ ضخم متعدد الرؤوس، الجميع يعلنون البراءة من ارتكاب تلك المجازر، يلقون اللائمة على

طرف ثالث مجهول لكن التحقيق أوصلنا إلى نتائج خطيرة..

- كيف تضمن أن تتعامل اللجنة بحيادية وبدون انحياز؟

تسأل وهي تحدِّق في أبيها كأنها تراه لأول مرة، فهو كتوم قليل الكلام عن حياته الشخصية والمهنية، تتغير ملامح وجهه، يتقطَّب حاجباه، يغوص في بحر الذكريات المرِّ والمؤلم، يرد عليها بتشنج:

-لقد تعاهدنا بالدم أن نصون شرف المهنة ونقدم للجهات العليا تقريرًا منصفًا يرجع السكينة إلى أرواح الشباب الذين قتلوا بدم بارد، الأمر لم يكن سهلًا، لا أحد يقبل أن يدلي بمعلومات تفيد سير التحقيق، نخرج من متاهة لندخل في أخرى لكننا كنا مصرين ومندفعين لإيجاد الفاعل.

الدولة غضت الطرف عن عناصر مرتبطة بأحزاب السلطة، أطلقت نار قناصتها باتجاه صدور المتظاهرين اليافعة والعارية، كدنا نصل إلى أسماء الجناة، الغول الجاثم على صدورنا شعر بخطورة لجنتنا والنتائج التي توصلت إليها، أطلقوا أربعين طلقة على العقيد أرسلان، حوَّلوا جسده إلى منخل.

- ماذا فعلت؟ وماذا حل بالضابط كريم؟

هزني منظر أرسلان، وأبناؤه يبكون فوق جثته الممزقة، قررت الانسحاب، لم أعد أستطيع المواصلة، لم أكن أتخيلكم تكملون حياتكم يتامى بلا معيل، اتخذت أجبن قرار في حياتي، قدمت طلب إعفاء من اللجنة، هذا الهروب منحني فرصة أخرى للحياة لكن لم

يمنع نزول العقاب علي، أربعة ملثمين دخلوا منزلنا في وضح النهار، أصابوني بعيار ناري غير قاتل، كان هدفه التأديب فقط وإخراس لساني إلى الأبد، حمدًا لله أنك كنت في المدرسة يومها ولم تشهدي تلك الواقعة المأساوية والمروِّعة.

حصل النقيب كريم على ترقية، فهو الذي وشى بنا، وكان ينقل أخبارنا إليهم أولًا بأول.

- سفلة، أنجاس.. يستخدمون الطرق الملتوية للحصول على غاياتهم وطمس الحقيقة..

تصرخ صرخة انتبه لها باقي أفراد الرحلة فاتجهوا صوبهما، تقف وهي لا تملك السيطرة على البركان الهائج في داخلها، يمسك يدها، ينظر إليها وعيناه تهدئ روعها حتى سكنت، ثم يكمل:

- المغزى من بوحي بسرِّي لك اليوم هو أن أحذرك أن لا تكوني جبانة مثلي، فتعيشين مع النفس اللوَّامة طوال العمر، يجب أن تستمري، يجب أن تفخر بك أمك وأزل، أنا أعرف أن الأمر صعب لكن هذا هو قدرك، أن تكوني لبوة العراق، وتأخذي بثأر الشهيد وتثلجي صدر أمه..

- لكنني لم أعد أحتمل.. إنها أزل.. أتذكر يا أبي حين تبتسم، تظهر غمازتها لترصع خدها الأيسر؟ أتذكر يا أبي حين تضحك تزهر الأرض البور من حولنا ويدخل شعاع الشمس إلى بيتنا؟ أتذكر عندما كانت تقلب حروف الكلمات، فتسمي العنكبوت "عنبكوت" فنضحك

نحن من كلامها.. لقد كانت فرحتي.

- كفى يا ابنتي.. كفى.

يقول لها ويضمها إلى صدره وهي تذرف الدمع الحار الحرَّاق، لامار وإيمان لا يملكان إلا أن يراقباها حتى تهدأ.

يرجع الجميع إلى الفندق، يَغطُّون في نوم عميق يزيل أثر التعب العالق بأجسادهم من نهار يوم متعب، النسوة يجتمعن عند المساء، يقررن إقامة حفل صاخب يودعن فيه مصر، إيمان تصر على أن تخرج صديقتها من نوبات الكآبة التي تحاصرها، يحضرن أمسية في مطعم وسط البلد، يجربن تدخين "شيشة" محلية الصنع و"معسل" يسمى "ثلاث ورقات بسكوتة"، الأجواء الصاخبة تجعل التخاطب صعبًا إلا بالصراخ، ترقص لامار وتصفق إيمان بحرارة، ينجحان بإماطة الكدر عن صديقتهما، تبتسم، تشاركهم التصفيق..

- ماذا وضعت بتلك الشيشة يا رجل؟

إيمان تخاطب صاحب المطعم وهي تترنَّح، يجيبها بأنها مجرد أعشاب طبيعية مريحة للأعصاب، تغص أنهار بنوبة ضحك لم تذقها منذ عصور، تراقب لامار وهي تحاول بصعوبة أن تشرب فنجان القهوة وكأنها لا تعرف مكان فمها.

الأمور خرجت عن السيطرة، يخرجن من المطعم وهن لا يتوقفن عن الضحك لسبب أو من دون سبب، القهوة المرة لم توقف الخِمار الذي ضرب على عقولهن، يتمايلن وسط الشارع،

إيمان تلطم خدها لتصحو لكن من غير جدوى.

يصلن بشق الأنفس إلى غرفهن لكن أنهار تظل تفكر بشهم، تقرأ قصيدته من جديد، تطرق باب لامار.

- أريد توضيحًا؟ ما علاقتك بشهم؟ ومن هو بازوزو؟

تقول لها وهي بالكاد تستطيع الوقوف، تركز في وجهها.. إنه شهم، تصرخ:

- أين لامار؟

تدفعه وتدخل إلى الغرفة وهي تناديها، لا أحد غيره، الوجه لشهم والجسد للامار، تمسك أنهار رأسها، تملش شعرها، لم تعد تميز الواقع من الخيال، تقترب منه، يبتعد قليلًا، تتقدم نحوه، يُحرِقها لهيب نفَسِه وكأنه يمنع ثورًا من أن يثور، تركض نحوه، تقبِّله وتطرحه أرضًا ثم تسقط فوقه، لا تملك السيطرة على تصرفاتها، دماغها المخدَّر يترك عقلها الباطن يتصرف.

ينحيها جانبًا، ويهمس في أذنها:

- أنهار.. لقد ارتكبت بحقك وحق أزل خطأ جسيمًا، وقد نذرت نفسي لحمايتك لعلي أكفر عن ذنبي.. إني أصبر صبر الأنبياء.. وأنا أرى جسدك الطازج وأمنع نفسي.. لا تصعِّبي الأمور عليَّ أكثر.

تسحب نفسها، تتكوَّر في إحدى الزوايا، تمسح وجهها وتقول:

- كلكم غدَّارون وخونة، لماذا تكتب لي أشعارًا تغازلني فيها؟ إنك

وغد وضيع كزوجي الذي ربما يخونني الآن مع غانية أو سكرتيرته أو..

- كفى، أنهار.. هذا تأثير الشيشة التي دخنتِها، عندما نعود إلى بغداد سأشرح لك.

يخرج من غرفته هربًا ويتركها تمسح دموعها، تعود إلى غرفتها.

في الصباح، يستعد الجميع للرحيل إلا لامار، لم يشاهدها أحد، تحاول إيمان الاتصال بها ولكن لا مجيب.

*****

(٦) أولاد بازوزو

أنهار قوية وصاحبة إرادة حديدية، كل من حولها كان يؤمن بقدرتها على تجاوز محنتها على الرغم من قسوتها وشدة وطأتها. طبيبها خفض جرعة المهدئ وباعد بين مواعيد زياراتها المقبلة فقد لاحظ تعافيها وإن كان بطيئًا. السفر إلى مصر كان له أثر إيجابي في تحسن حالتها على الرغم من الأحداث التي دارت بينها وبين لامار التي اختفت نهائيًا، لم ترد على أي اتصال وكأنها قرص سكر ذاب في قدح شاي وتلاشى.

تسمع صوت ابنتها الدافئ وتحلم بها، يحثها للخروج من الأزمة ومواصلة العمل في الجامعة والانتقام ممن قتلها بأن لا تتوقف عن محاربة الجهل وفضح السُّرَّاق وتعرية القتلة. الناس صاروا يتعاطفون مع حالتها، يصبُّون جام غضبهم على أبي زيدون، المستفيد الوحيد من الحادثة. الشباب يخرجون في مظاهرة حاشدة في ساحة التحرير منددين بمن حاول وأد الحرية التي دفع البلد دمًا غاليًا من أجلها.

الصحف العالمية والمحلية غير المموَّلة من حزب أبي زيدون هاجمت بشراسة الطرق المبتذلة التي يتبعها من في السلطة لإقصاء المنافسين. القاضي شرف الدين أمر بتعيين حارسين لتوفير الحماية لبيت أنهار من أي اعتداء محتمل.

موظفون صغار في الدولة، لا حول لهم ولا قوة، يرسلون إليها عبر رسائل إلكترونية سرية ملفات فساد تدين شخصيات في الدولة، ولكنها تظل تبحث عن الضربة القاضية، الجميع يعرف أن هناك فسادًا لكن كيف تدين رأس الهرم؟ كيف تطيح بغول الفساد الأول، الرئيس أبي زيدون؟

الصفقات دائمًا تبرم بأسماء وهمية وتنتهي عند أشخاص غالبًا ما يكونون أكباش فداء، تنظيمات خيطية لا تصل إلى المستفيد الأول، أنهار تفرش أوراقها على المكتب، تبحث عن همزة الوصل، تفتش في ملفات النفط، عمولات كبيرة تقاضاها مستر(x) وتسهيلات قام بها مستر (T) لكن مَن هؤلاء.. لا أحد يعرف، ترمي القلم من يدها، ترجع ظهرها إلى المقعد، تأخذ نفَس استراحة وتغوص من جديد في الملفات، البلد يمتلك رابع أكبر قطاع عام في العالم والخدمة المقدمة للمواطن سيئة جدًّا، المعادلة غير صحيحة، هناك خطب ما، تهتدي إلى وجود موظفين وهميين يتقاضون راتبًا أو ربما راتبين من الدولة، من هم؟ ومن المستفيد من إدراجهم ضمن لائحة موظفي الدولة؟

تستخدم علاقاتها، تتصل بمعارفها، لا أحد يجيب على هذه الأسئلة مع الدليل، كل الإجابات تكهنات ورجم بالغيب، لا أحد يملك اليقين. تشعر أن شريحة العقل الافتراضي المساعد تكاد تنفجر، يلازمها الصداع، تطفئ حاسوبها وتنام.

الأمر لم يكن سهلًا وهي تحضر من جديد لقاعة المناظرة، تتوشَّح بالسواد وظهرها محني، تلازم مقعدها وتعصر راحة يديها، لا تقوى على الوقوف بعد أن تتالت عليها النوائب.

أحد الحاضرين يهمس لصاحبه: "هذه المرأة الصَّلِفة تستحق كل ما جرى لها"، ويرد هو بابتسامة ماكرة: لا يمكن للإنسان أن يرى الحقيقة المجردة بدون انحياز، مهما اجتهد فإن هناك نوازع في داخله ترجح ما يوصي به عقله الباطني ضاربًا عرض الحائط بالمنطق والأدلة والبراهين.

يبدأ أبو زيدون الهجوم على منافسته، يستغل ضعفها وقلة حيلتها، يعتقد أن الأمر قد قضي وأنها استسلمت، يشكك في قدرتها على إدارة الدولة وهي لم تتسنَّم أي منصب سياسي في الحكومة، وليس لديها الخبرة الكافية للنهوض بأعباء الوزارات، كما يلمِّح إلى أن ما تحمله أنهار من أفكار خطر على معتقدات الناس وعاداتهم.

- أيها السادة الكرام؛ إننا مسلمون، والإسلام هو المصدر الرئيسي للتشريع وصياغة بنود الدستور.

يقول أبو زيدون وهو يتفيهق في مشيته مقتربًا من منافسته ويردف:

- لا مكان للملحد والفاسق بيننا، أود أن أردد بعض كلمات السيدة أنهار التي ذكرتها في إحدى المقابلات الصحفية، "المعلِّم يفتح لك نوافذ الحقيقة، الكاهن يلقي بك في غياهب الوهم"، إنها

تتهم رجل الدين وتسميه كاهنًا يبيع الوهم للناس، هذا غيض من فيض وأترك الحكم لكم أيها المسلمون.. هل ترضون أن تحكمكم امرأة تحمل هذا الكم من الأفكار المسمومة والتي تنوي نفثها في مجتمعنا المحافظ؟

يتنهد لبرهة ثم يكمل:

- في مقابلة أخرى تقول: "يجب أن نترك الاحتكام للعشيرة ونتجه إلى الدولة المدنية"، تطلب منا أن نتنصل لعشائرنا، هل ترضون بهذا الكلام، تشنع على رموزنا ومقاومتنا البطلة وتطلب منها أن تتجرد من سلاحها.. هل من صاحب غيرة وحمية على دينه ووطنه يرضى بذلك؟ اسمحوا لي أيها السادة أن أقول لكم إن تبنيتم منهجها العلماني الكافر فلن يبقى لكم لا دين ولا وطن ولا عشيرة تؤويكم.

يعود إلى منصته منتشيًا يملأه الغرور، تمنح هند خمس دقائق لأنهار لتصد سيل الاتهامات التي وجهها إليها.

- سيدي الرئيس.. هل تعلم فخامتك أنك موظف عند الناس؟ والوطن ليس ميراث أبيك، تعيث بممتلكاته وتهدر ثرواته وتقتل شبابه وتستبيح نساءه كما تشاء.. لا يمكنك أن تمحو آلاف السنين من الحضارة بجرة قلم.. أكاد أسمع الشهداء المخضبين بالدماء وهم يطالبون بمقاضاة سياستك الرعناء في الدنيا قبل الآخرة.. سيدي الرئيس لماذا لا تتعظ من الذين سبقوك؟ لماذا لا تعتبر من الذي شُنق، والذي مُرغت جثته في تراب الأزقة والشوارع؟

تقف أنهار شامخة من جديد ترمِّم ما أصابها من جراحات على الرغم من مكابدتها الإجهاد والحزن، وجهها مرهق ودموعها نزلت على خدها دون وعي منها، تخبر الجميع بشجاعة أنها تتبنى المدنية وأن فصل الدين عن الدولة ليس انتقاصًا من الدين بل هو حفظ لهيبته ومنع للتجار من المتاجرة به وإقحامه في صفقاتهم القميئة.

تنظر إلى الجمهور ثم تردف:

- تخيل الأثر الذي يلحق بنا عندما نشاهد رجلًا يلبس لباس الدين ويدعي الورع وهو يسرق قوت الفقير ويرسل شبابنا إلى أجداثهم.. يجب أن نعطي القداسة للدين وليس لرجال الدين الذين يعملون في السياسة.

تنظر إلى قاتل ابنتها وهو يضحك ضحكة صفراء تختزن حقد العالم بأسره، تحافظ على مظهرها الخارجي كمقاتل إغريقي أشم رغم الطعنات.

بعض الأحايين، ردة الفعل قد لا تكون من جنس الفعل نفسه، وقد يكون الانتقام من القتلة بفضح زيفهم أشد أنواع الانتقام. تتحول أنهار من الدفاع إلى الهجوم.

- الفرق بيني وبين منافسي.. أني أركّز على المنهج وهو يركز على أموري الشخصية.. هناك مئات المليشيات المنفلتة تسرح وتمرح في بغداد والعراق، ماذا فعلتَ للحدِّ من انتشارها؟

تتطرق إلى موضوع حساس لا يرغب أبو زيدون بالخوض فيه، لكنه أصبح مجبرًا على الإجابة:

- لقد قمنا والحمد لله بدمج جميع المليشيات بأجهزة الدولة الأمنية.

يجيب.. لكن أنهار تقاطعه:

- أنت فقط جعلت تمويلها من موازنة الدولة.. إدارة هذه المليشيات ظلت مرتبطة بأشخاص وأحزاب لا بتسلسل إداري مرتبط بالقائد العام، والدليل أنك لا تستطيع تحريك جندي واحد بدون موافقة المالك الحقيقي لهذه المجموعة المسلحة أو تلك والذي قد يكون مرتبطًا بدول خارجية.

تثبت بالأرقام والبراهين صحة كلامها، تستعرض أسماء مقربة من أبي زيدون، يمتلكون مليشيات مسلحة فوق القانون، مسؤولون بشكل مباشر عن ملفات فساد ويبتزون المقاولين وموظفين كبارًا في الدولة، أموال ضخمة أهدرت وهرِّبت إلى خارج البلد. تنتقل لتطرح قضية غسيل الأموال وشراء الدولار، تتطرق إلى صفقات تهريب السلاح والدولة تغض الطرف. صفقة لشراء أطنان من فاكهة "النبك" بعشرات المليارات، حصة كل فرد مئة كيلو من النبك.

- مئة كيلو للشخص الواحد، أليس في الأمر مبالغة؟

تقول، وقد تحول وجهها إلى علامة استفهام كبيرة، بعد بحث مقتضب تبين أنها صفقة سلاح سُجلت على أنها مجرد عملية

استيراد أطنان من الفاكهة.

يهرب من طرحها، يشوِّش الرأي العام، يتهمها بالعمالة لدول أجنبية هدفها النيل من سيادة العراق، يحوِّل النقد الذي يطوله، ويصوِّره على أنه نقد للشعب أو للوطن لكي يستجدي عواطف الناس ويصرف انتباههم عن عيوبه وتقصيره.

تتقدم نحوه، عيناها مصوبتان مباشرة نحو عينيه، لا ترمشان، ينال منه الارتباك، تقول له بصوت واثق وجهور:

- ما ذنب أزل لتقتلها؟ حسبي الله ونعم الوكيل، سلمتك بيد الذي لا يُظلم عنده أحد.

يتجمد من غير كلام، يتصبَّب العرق من جبهته.. يتدخل محاميه لينقذ الموقف.

- القاضي شرف المحترم.. إني أسجل تحفظين على سؤال المرشحة.

يسمح القاضي له بالتحدث، يسطِّر مخالفتين ضد أنهار تفكان الخناق عن موكله وتعطيه فرصة ليرتب أوراقه من جديد. يثبت المحامي تقدم أنهار باتجاه أبي زيدون، ويصف هذا الفعل بتجاوز صارخ على اللوائح المعمول بها في المناظرات ثم يضيف: "إنها اتهمت موكله جزافًا بقتل ابنتها من غير دليل"؛ القتلة يمحون آثار جرائمهم بحرفية عالية وبإتقان، والكل يعرف أنه قتلها لكن لا دليل.

- أبو زيدون المستفيد الوحيد من قتلها.

تقول، لكن القاضي يقاطعها بصوت حازم، مما يجعل أنهار تعود أدراجها، الحسم لم يعد ممكنًا إلا بأدلة بينة وصريحة. يردف القاضي:

- سوف يتم استبعادك إذا ما طرحت أي اتهام بدون أدلة.. رُفعت مناظرة اليوم.

*****

تشعر بالوحدة وهي تشغل نفسها بمسلسل مملٍّ، كلام الحب فيه مملٌّ، حركات الممثلين مكررة ورتيبة كأنهم روبوتات. تلقي منظِّم التلفاز على الأريكة، تستعد للنهوض لتحضير العشاء، لكنها لمحت ظهور البقع الحمراء في يدها، تركض نحو المرآة، تجدها محمرة، وكأنها تعرضت لعدة لسعات نحل مذعور. تهرع نحو شباك المنزل لتتأكد من وجود الحراس على الباب، تسمع صوتًا، إنه صوت ابنتها يعود يصدح بوضوح على الرغم من امتثالها لتعليمات الطبيب.

- ماما، ماما.. اهربي.. إنهم قادمون، اهربي.

صوت أزل الباكي والحزين يمزق شغاف قلب أنهار ويؤثر على أعصاب أمها ويعجل من انهيارها.. تصعد إلى الطابق الثاني تبحث عن مصدر الصوت.. تركض نحو خزانة الملابس، تبحث كالمجنونة عن وهم.

- ابنتي.. أين أنت؟

تقول بهلع.. ترتطم بالمنضدة، تحاول من جديد تتبع الصوت.. تفتش في كل مكان، تكاد تفقد لبها، تدخل مكتب زوجها.

- ماما.. غادري المنزل.. سيصلون إليك قريبًا.

الصوت أكثر قربًا.. بل إنه يحاصرها من كل مكان.. تخور قواها، تغمض عينيها وتبدأ بالنحيب.. الأمر فوق طاقة تحملها.. توقف الصوت بعد عدة دقائق، ترفع أنهار رأسها وهي تتلفت، تتفحص الأشياء من حولها كأنها ترى المكان لأول مرة مثل شخص تخالطه الحقيقة والخيال. يتملكها حدس بأن أزل كانت تريد أن تريها شيئًا ما، تسمح لنفسها بتفتيش أغراض زوجها، تلمح اسم أبي زيدون على أحد الملفات الموضوعة في درج المكتب. لم تستطع منع فضولها من فتح الملف. أوراق حُبْلى بالمعلومات الدسمة، صفقات مشبوهة وعمولات مريبة لتمرير مشاريع استراتيجية في البلد بين أحمد والرئيس السابق أبي زيدون.. نعم بين زوجها وغريمها..

تقلّب الأوراق مشدوهة وهي تذرف الدمع من شدة الصدمة، زوجها شريك أبي زيدون في ملفات فساد متنوعة. صفقات سلاح فاسد، واستيلاء على أراضٍ وممتلكات عائدة للدولة، وتقاسم واردات صالات القمار والملاهي وتمويل مشاريع وهمية من الموازنة العامة وبيع المناصب السيادية في الدولة.. يتاجرون في كل شيء.

تأخذ الملف، تخرج مسرعة، لكن الوقت لم يسعفها، تقابل أحمد وجهًا لوجه، زوجها وأبا ابنتها، بل عدوها، بل شريك قاتل

ابنتها، لم تستطع وضع وصف جديد له بعد ما اكتشفت تلك المعلومات، يعرف أنها عرفت بمجرد أن لمح الملف الأخضر في يدها المرتعشة.

- لماذا قتلتم أزل وجوعتم شعبًا كاملًا؟ ماذا كان ينقصكم أيها الأوغاد؟

- دعيني أشرح لك.

يقول ويمد يده، يحاول أخذ الملف لكنها ترفض وتبعده عن طريقها بكل ما تملك من قوة وهي تصرخ وتستنجد بالحرس.

- أنهار.. الأمور لا تحل بهذه الطريقة.

يحاول تهدئتها ولكنها تستل سكينًا حادًّا من المطبخ وتشهره في وجهه.

- لن أرحم قاتل ابنتي أبدًا.. والله لن أتردد في غرس هذه في بطنك إذا اقتربت أكثر.

تقول وعيناها تصران وتأكدان ما تقول.. يرفع يده ويتراجع إلى الوراء خطوتين مستسلمًا وكأنه يواجه ثورًا هائجًا لا يهادن ولا يقبل التفاوض.

الضربة جاءتها من الخلف، فالحراس الذين وثقت بهم ليحموها هم أول من خانوها ومالوا إلى صف زوجها ونصروه عليها. تخر هاوية على الأرض والدم يسيل من رأسها، لم تفق إلا وهي ملقاة على سرير أبيض في مستشفى حياة الراهبات.

تشاهد أحمد وهو يتحدث إلى الطبيب، نظرية المؤامرة تتحفز لديها إلى أعلى المستويات، تشك في كل من حولها، تصرخ محاولة الهروب من باب غرفتها الموارب، لكنَّ اثنين من الممرضين الغلاظ يمسكون بها، يعطيها الطبيب عنوة جرعة مهدئة. تسمع صوت زوجها يهمس في أذنها وهي ما بين الصحو والنوم:

- "كوني عاقلة، لا تجبريني على إيذائك.."

تغمض عينيها مستسلمة للدواء، أضغاث الأحلام ترقص داخل فكرها المشوَّش، صورة ابنتها تأتي وتختفي، تجد نفسها وسط مجموعة من الغرباء، لباسهم غريب وكلامهم مختلف اللهجات وكأنهم من عدة أزمنة وعدة بلدان، المكان ضيِّق ومعتم، تلمح أبا زيدون الذي يهم بالخروج، تجري خلفه وتحاول اللَّحاق به وسط الزحام، تصطدم برجل أملط وعظيم الكرش، تسقط أرضًا.

- هل أنت بخير؟

يقول لها الرجل وهو يسحبها، تتجاهل سؤاله وتسأله:

- أين أنا؟ ومن هؤلاء؟

- نحن أولاد بازوزو.

- أنا لا أنتمي إلى هذا المكان، لا أعرف أحدًا هنا.

- يبدو أنك جديدة، أهلًا وسهلًا بك.

- يجب أن أخرج من هنا، أنا لا أنتمي إلى هذا المكان.. إنني أشعر

بضيق.

تمسك رقبتها بكلتا يديها، تركض نحو أشخاص يجلسون حول مائدة طعام، تسألهم فلا يجيبون، يصوِّبون أعينهم نحو الطباخ وهو يحمل إليهم الطبق الرئيسي.

- يا إلهي، إنه طفل حي.. ماذا تفعلون؟

تصرخ في وجوههم، لا يلتفتون إليها، الطفل يرفع يده مستنجدًا، لا يكترثون، اللعاب يسيل من أفواههم الجائعة، أحدهم يقضم يد الطفل والآخر يفصل رأسه، دمُه القاني يلطِّخ المكان، تسقط أنهار أرضًا، تصيح بأعلى صوتها:

- أخرجوني من هنا.. إنني أختنق.. أختنق..

تستيقظ مرعوبة، قلبها يخفق بشدة، تتحسس رقبتها وكأن أحدًا أطبق عليها وقطع عنها الهواء، تنظر حولها فلا تجد أحدًا، يدخل عليها أبوها بعد أن سمع صراخها.

- هل أنت بخير، يا ابنتي؟

يقول وهو يتفحَّص ابنته، تجيب بعد أن عاد الدم يتدفق في عروقها:

- إنه مجرد كابوس، لا تقلق يا أبي..

يجلس الأب بجوارها، يسرِّح شعرها، يعيد عليها قصة كان يقصها عليها وهي طفلة حتى تنام.

- كان يا ما كان، وجدت حمامة بيضاء ضخمة بيضةً كبيرة الحجم على ضفة نهر الفرات، لونها قرمزي مميَّز، عكفت عليها واحتضنتها، فقست البيضة فأخرجت طفلة جميلة في غاية الروعة، عيناها سوداء، دعجاء وكبيرة، ككلمة مضلّلة وسط نص طويل، لون بشرتها خمري وجدائلها طويلة، ظلت الحمامة ترعى الطفلة على الرغم من يقينها بأنها ليست من بني جلدتها، مرت سنون وسنون حتى عثر المزارعون على الفتاة وأمها، قتلوا الحمامة وخرَّبوا عشَّها، وباعوا الطفلة في سوق نينوى، عانت ما عانت على يد التجار، خدمت في البيوت، تحملت الإهانات، حتى رآها الملك وأُعجب بها، لم يستطع أن يقاوم جمالها.

يلتفت أبو أنهار إلى ابنته، فيجدها تغط في نوم عميق، يكمل قصته وهو يبتسم..

قرر أن يتزوَّجها ويجعلها ملكة، وبعد أن مات الملك أصبحت سميراميس أعظم ملكات بلاد آشور وبلاد الرافدين، حكمت بالحكمة والقوة ما يزيد على أربعين عامًا.

- الله يحميك يا ابنتي..

يهمس الأب في أذن ابنته وهو يغطيها.

*****

(٧) بازوزو

يستعرض الدكتور أحمد قوَّته أمام زوجته، يوصل إليها رسالة بالغة الأهمية مفادها "من يقف في طريق مصالحه وعمله فسينال عقابًا قاسيًا مهما كانت درجة قرابته" يخبر الجميع أنها هوت في أثناء صعودها سلالم الدرج المبلَّلة، عقل أنهار يرفض تصديق ما يحدث لها، تجيل نظرها في غرفة المشفى، تبحث عن ميناء أمان، تطالع الوجوه من حولها باستغراب، وهو يرمقها بتحذلق، تشعر أنها محاصرة بأناس أشرار وجشعين، تفقد الثقة بالجميع.

الغرفة مكتظة بالزوار، الدكتورة إيمان حضرت باكرًا كما حضر ممثلون عن رابطة أسسها مجموعة من الشباب، يقرِّرون الوقوف إلى جانب المرشَّحة الجديدة، أنهار قدحت الشرارة في عقول الشباب، وأذكت نار الانقلاب على الواقع المرير الذي يرزح تحته غالبية الشعب.

استهتار الأحزاب الحاكمة وتصرفات أفرادها الطائشة ووضع العصي في دواليب حملات المرشحين المستقلين غيَّر الموازين وقلب السحر على الساحر، فصحَّ المثل الذي يقول: "ربَّ ضارة نافعة"، فقد تحوَّل دخول أنهار إلى المشفى في ظروف غامضة إلى قضية رأي عام، قد تغير معادلة التنافس على كرسي الرئاسة، وتمنحها تعاطفًا شعبيًّا ودوليًّا يعطيها الأفضلية على منافسها المتجذر في السلطة.

في أحد أركان الغرفة تجلس عائلة أبي درة صديقة أزل، تحمل بيديها الصغيرتين لعبة على شكل مسدس، تركض نحو أم صديقتها وتقول لها: "سوف أحميك من الأشرار كما أوصتني أزل"، فتحضنها بقوة وتبكي من جديد، لكن إيمان تدخلت ببعض الجمل التي لا تخلو من المزاح لتقحم السرور إلى قلبها. وقالت:

- هل تذكرين ذلك المجنون شهمًا؟

- نعم.. كان في سنته الدراسية الأخيرة ثم اختفى.. لا أعرف.. كان يملك شيئًا مميزًا.

تجيب أنهار وقد اتسعت حدقة عينها.

- لقد جاء اليوم قرار فصله النهائي من الجامعة، إنه حقًّا غبي، كان على وشك التخرج.

يدخل رجل كثُّ الشعر وملتحٍ، يرتدي زيًّا عسكريًّا برتبة عميد، وينغرس في نطاقه مسدس، يسير خلفه بضعة جنود مسلحين، يقاطع الحديث بصوت ذكوري خشن:

- أنا الحجي أبو لظى.. أريد التكلم مع الدكتورة أنهار على انفراد لو سمحتم.

يرمي جملته مباشرة بدون مقدمات، يحاول الشباب منعه لكنها تتبنى الموقف، وتوافق على الحديث معه على انفراد.

- يمكن أن تعتبريني وسيطًا لنزع فتيل الصراع بينك وبين أبي زيدون.. أم أزل؛ ماذا تريدين؟ منصبًا؟ مالًا؟ صفقة؟ يمكن أن

نتفاوض؟

يقول وهو يجلس ويضع مسدسه على المنضدة، كلماته وإيماءاته تحمل كثيرًا من الترغيب والترهيب، يرى أمارات التعجب على وجه أنهار، ترد بصوت واثق:

- سيدي العميد، قل لمن أرسلك: أنهار ستكمل المناظرة وستفضحكم شر فضيحة.

يبتسم الحجي، يهز رأسه، يتمتم باستهزاء:

- أنت لم تفهمي الأمور بعد.

يسهب في شرح خبايا العملية السياسية من وجهة نظر الطبقة الحاكمة، يجمعون الأصوات من الناس إما عن طريق التزوير أو باستئجار رجل دين مؤثر في المجتمع، أو عن طريق شراء ذمم القنوات الإعلامية والأقلام المأجورة وشيوخ العشائر التي تقبل ذممهم التفاوض، يصورون المستقبل بأبهى صورة، ويقولون إن الإعمار والبناء قادم لا محالة، وإن انتخابهم مرة أخرى كفيل بأن يحيل الحياة وردية لا شية فيها، ثم يتفقون على رئيس مقابل منافع لكل حزب تتناسب مع الأصوات التي حصدوها.

- أم أزل، إما أن نتقاسم الكعكة معًا أو نحرق الأرض.. لا يمكن أن نسمح لأحد أن يأخذ الغنائم وحده.. نحن مستعدون لأن نعطيك وزارة الثقافة في الحكومة التي سيشكلها أبو زيدون إن شاء الله.

يقول وهو يراقب ملامح أنهار التي باتت مزدحمة.

ترد:

- شكرًا لكرمك.. العرض مرفوض جملة وتفصيلًا.

- ما رأيك بوزارة الصحة إذًا؟ وزارة تدر أموالًا كثيرة.. ففيها عقود كثيرة وموازنة تشغيلية جيدة قد تشترين جزيرة في أوروبا خلال السنوات الأربع القادمة.

- كلا.

يحاول إقناعها بأي طريقة، يعرض الوزارات كأنه تاجر في سوق خضار، يبيع لمن يدفع أكثر.

- عرضي الأخير هو وزارة المالية.. حاولي أن تزني الأمور بميزان راجح.. العناد لا يجدي نفعًا.

- المقابلة انتهت.

- هههههههه.. أنت عنيدة جدًّا.. الله يساعد أحمد عليك.. سأمنحك فرصة التفكير.. إما وزيرة أو جثة هامدة لا تكلفنا سوى طلقة رخيصة من هذا المسدس.. ثقي أنني سأفعلها من غير تردد.

يقول وهو يلوح بمسدسه، يهم بالرحيل، يرن هاتف أنهار، أحدهم يرسل شعرًا مجهولًا من رقم مجهول:

أنت البادئة.. أنت البسملة

عندليب عذب العندلة

بركان

إعصار
ثورة هوجاء شديدة البلبلة

تتيقن في داخلها أنه شهم، يشد إزرها من مكان ما، تنتفض وتستوقف أبا لظى، تقول ما كانت تخاف أن تبديه:

- أعرف أنك تستطيع، لقد قتلتم ابنتي بدم بارد، وحاولتم قتلي عن طريق سمساركم؛ زوجي المصون.

تتنهد قليلًا ثم تكمل:

- لم تعد حياتي ذات قيمة لكني سأجعل موتي علامة فارقة، سأحرق جسدي لينير ثورة الأبطال ضدكم.. سأكون قربانًا لمستقبل جديد.. أعدك أن تكون حياة أزل بذرة لبراعم تستنشق الحرية بدل الهواء.

يستشيط العميد المرسل غضبًا، تحمرُّ وجناته، يخرج وهو يجرُّ معه فشل المفاوضات التي وأدتها أنهار قبل أن تبدأ.

يدخل الجميع يتفقدونها، كانوا قلقين من المقابلة المحفوفة بالمخاطر مع الضابط الملتحي.

أبو لظى يقود فصيلًا مسلحًا يصول ويجول في البلد، له اليد العليا في تعيين هذا الوزير أو ذاك على الرغم من أنف رئيس الدولة، انتهازي يتصيد في الماء العكر.

- كيف حالك يا أنهار؟ ماذا أراد منك هذه الشخص؟

تقول إيمان. تجيبهم هي بابتسامة مقتضبة مع عينين فيهما كثير من الخوف من المستقبل.

- لا شيء يستحق الذكر..

تطرق برأسها، تفكّر في صمت، أي طريق شائك ينتظرها؟ كم من الفخاخ نصبت لها لثنيها عما هي عازمة على فعله؟ تلافيف مُخِّها يصارع بعضها بعضًا للحصول على الإجابات واتخاذ القرار الصائب، إما المضي قدمًا وتحمل التبعات أو التراجع والحفاظ على ما تبقى من حياتها السابقة؟

يقاطع تفكيرها صوت هاتفها معلنًا عن وصول رسالة عباراتها مرتبكة وغير مترابطة.

- أحدهم لديه ملفات مهمَّة تخصُّ حياة أبي زيدون قبل الوصول إلى الرئاسة، يجب الحصول عليها..

تقول أنهار بصوت مصرٍّ..

- ما الخطب يا أنهار؟

تقول إيمان وهي تنظر إلى صديقتها التي قرأت لهم مضمون الرسالة، لم تتطرق إلى الرسالة الأولى وأبيات الشعر التي تنسبها إلى شهم، فقد حفظتها في أدراج قلبها المكسور لتكون سرًّا مع الأسرار التي دفنت داخله.

- قد يكون الأمر مكيدة حيكت في ظلام.

تقول إيمان.

- يجب أن نجازف، فنحن لا نملك خيارًا.. لن نظل مكتوفي الأيدي أمام ضرباتهم.

تقول والتحدي يتطاير من عينيها، ترفع إيمان أحد حاجبيها مستنكرة ما تنوي أنهار فعله، لكنها تستسلم عندما تراها تنهض وتطلب الخروج في مؤتمر صحفي.

الصحفيون يتجوَّلون خفية في أروقة المستشفى، يبحثون خلسة عن سبق صحفي هنا وهناك، الناس عِطاش لسماع أخبار تلك الفتاة الغامضة التي اقتحمت عالم السياسة بدون استئذان، وتصدرت عناوين الصحف والأخبار العاجلة في كبريات القنوات المتلفزة المحلية منها والدولية. الكل ينتظر أن يراها مكسورة ومنحنية، تبكي وتولول على فقدان ابنتها وتعرضها المستمر للاعتداء والمضايقة؛ لكنها تعلو شامخة رافضة التباكي والخنوع، الكلمات لا تؤثر فيها والضرب تحت الحزام يجعلها أقوى وأقسى، تدكُّ معاقل الفساد من جديد وتفضح أوكارهم ومؤامراتهم، لم يعد لديها خيار غير التقدم إلى الأمام من فرط التضحيات التي قدمتها. حياتها لم تعد كما كانت في السابق بأي حال من الأحوال. تطرقت في مؤتمرها الصحفي إلى أن بحوزتها ملفًا يكشف الجانب المظلم من حياة أبي زيدون قبل الوصول إلى السلطة، وأنها ستحضر شاهدًا ليشرح ذلك بالدليل والبرهان.

قد تكون متسرِّعة لكن كلماتها تصيب معسكر أبي زيدون بالذعر الشديد، تحرِّك مشاعر الملايين الذين يرزحون تحت خط الفقر، ينبشون القمامة، يلوكون الفضلات وباقي الطعام وأنابيب النفط تحلب الأرض من تحتهم لتعود بالمنفعة إلى جيوب قطاع الطرق ووعاظ السلاطين الذين يحيطون بالرئيس، يحمونه من ثورة الجياع، يخدرون عقولهم مرة باسم الدين وتارة باسم الطائفية أو القومية. حبه للوصول والتسلق جعله يدوس على رؤوس الناس ويسوِّغ كل ما يرتكبه من أخطاء.

تنهي أنهار المؤتمر وتعود إلى بيتها، أحمد أخذ أغراضه وغادر، الشباب الممتلئ بروح الوطنية ينصبون الخيام أمام بيتها، لم يعد أحد يثق بالشرطة التي باتت مخترقة من المليشيات والعناصر الفاسدة، إيمان تلازمها طول الوقت، لم يسمع أحد شيئًا عن لامار وغيابها المفاجئ.

الليل يسدل ستاره، وهي تقاوم النوم، والأفكار المروِّعة تحيط بها من كل جانب، لديها منازلتان حاسمتان، الأولى مع أبي زيدون والأخرى مع زوجها، تدرس بجدية طلب الطلاق منه، أحدهم يتصل بها، يقطع خلوتها، عيناها تتجمدان ولا ترمشان؛ إنه شهم، تظل يداها مترددة ما بين الرد وعدم الرد، لا تملك القوة على فتح جبهة جديدة؛ لكنها توَّاقة لسماع أخباره في خضمِّ هذه الجدلية، الشوق دائمًا ينتصر، لا أحد يقوى على كبح جماحه.

يخبرها أنه يريد رؤيتها، يتهرَّب من ذكر سبب اختفائه، لا يبالي بقرار فصله من الجامعة، يتابع أخبارها كلها، يبوح لها بأنه شعر بلوعتها لما أصابها، يذكِّرها بما تنبأ به سابقًا في إحدى حصصها التدريسية، إنها ستعاني لكنها ستفوز. يلحُّ في طلب مقابلتها، تتردد، تعتذر، تخبره أنها ترغب في تكريس وقتها لمهمتها، يغريها بأن لديه شيئًا يخدم قضيتها، يصرُّ على أن تأتي هي إلى بيته عند دخول الغسق، تتصل بلامار فلا تجيب، تبحث عن أحد يشد أزرها، إيمان تلبي نداءها، يذهبان خلسة بعيدًا عن أعين الصحفيين والناس.

البيت مظلم وأكثر كآبة مما كان عليه في آخر مرة زارته فيها، وكان هو مختلفًا وكأنه كبر عشرة أعوام، يبدو أنه يحمل أعباء فوق استطاعته.

- شهم.. هل أنت بخير؟ تبدو شاحبًا والمكان هنا شديد الوحشة كأنه مقبرة.

تقول وهي تجلس مع رفيقتها على أريكة موضوعة على أحد جوانب غرفة الضيوف، يجلس على كرسي خشبي مزخرف يدويِّ الصنع، يتكئ على طاولة الطعام، يضع أمامه شمعة، نارها الباهتة بالكاد تضيء فضاء الغرفة المعتم.

- أنا لست بخير.. ولكن ليس هذا هو المهم.. حدثت معي أشياء لا تصدَّق لكنها حدثت.. أقسم أنها حدثت.. كل ما أطلبه منكما أن تنصتا إليّ جيدًا.

يقول وهو يتحدث بغرابة والمرأتان تنصتان باهتمام، يحاولان فهم ما يجري بينما يروي هو قصة البيت، اشترى أبوه هذا البيت قبل سنتين، مالكه القديم كان زاهدًا فيه، باعه بسعر مغرٍ.

تقاطع كلام شهم ضحكات إيمان العالية، حاولت أن تحبسها لكنها خرجت رغمًا عنها، تقول معلّلة تصرفها:

- هل أحضرتنا إلى هنا وفي هذه الأجواء، لتروي لنا قصة شراء البيت؟

لم يرد عليها شهم، لكن أصواتًا غريبة بدأت تصدُر من الجدار القريب، كلام غير مفهوم، في البدء كانتا تعتقدان أنهم الجيران؛ لكن بعد التمعن تيقنتا من أنه الجدار فعلًا.

- هل الجدار يتكلم يا شهم؟!

تقول أنهار باستغراب وهي تضع أذنها منصتة، تحاول تمييز الكلام.

- أنا لم أحضركما هنا لأقص عليكما الترهات، بل جلبتكما من أجل هذه الأصوات.. لو تركتني أكمل.

يقول شهم بنبرة صوت حادة لكنها واثقة، وكأنه لم يتفاجأ من وجود تلك الأصوات كما حدث معهما.

- قبل فترة وجيزة اكتشفت أن هذا البيت قد بني من حجر سرق من مدينة بابل الأثرية.

يرمي شهم كلمات صاعقة شديدة الوقع على مسامعهما، ظل يبحث عن سبب انتحار والديه، ويربطه بالأصوات الغريبة التي يسمعها كل يوم بعد الهزيع الأول من الليل. سأل كل شخص يصادفه، سأل مختار المنطقة والسبَّاك والجيران، تقصَّى الحقيقة من كل فمٍ يستطيع الوصول إليه، وأخيرًا وجدها، بعض الناس يسرقون الحجر والطابوق من مدينة بابل الأثرية ليكملوا بناء بيوتهم، الجهل والعوز يدمِّر حضارة البلدان، يستبيح حرمة أعجوبة من عجائب الدنيا السبعة.

- تخيلا أيتها السيدتان.. طابوق هذا الحائط عمره آلاف السنين قبل الميلاد.

يقول وهو يشير بيده إلى الجدران، يقترب من أحد الأحجار، يتحسسها بيده، ويكمل:

- ربما كان هذا الحجر موجودًا في غرفة الملك العظيم حمورابي حين كتب على مِسلته الشهيرة، وشرع أول قانون عرفته البشرية.

- أنا لا أجد ترابطًا في كلامك.. والأصوات تزعجني.. أنهار، لنغادر هذا المكان.

تقول إيمان، تهم بالرحيل، تطلب منها صديقتها الصبر الجميل.

يطرق شهم رأسه، يداعب عُثنونه، يواصل كلامه عن تلك الأحجار السحرية:

- بابل أرض انتشر فيها السحر والسحرة، كان الكهنة فيها

يستخدمونه في الطب وشفاء الأمراض كما مارسوه ضد الشياطين.

- سحر! شياطين! وإذا صدقنا قصتك.. ماذا بعد؟ ماذا تريد منا؟

تقول أنهار وترفع حاجبها، تمارس دور الأستاذة أمام طالبها المتمرد..

الأيام الأولى له في هذا البيت كانت مرعبة، لم يذق طعم النوم عدة ليالٍ، يضع أصابعه في أذنيه، يلازمه السهاد حتى بزوغ الشمس، وفي إحدى الليالي فقد قدرته على الاحتمال، ظل يردد وِرْدًا كان يحفظه عن جدته ويصرخ:

- ماذا تريدون مني؟

وجد كتابة على الجدار: "أنا بازوزو.. كيف حالك يا شهم؟".

كتب له: " ماذا تريد؟ ".

راح يكتب له والجدار يرد، يخبره عن قصته وكيف أن حكام بابل الأقوياء كانوا يأسرون الجن والشياطين في الطابوق الذي يبنون فيه قصورهم وقلاعهم وجنائنهم المعلقة، أسر في آشور وظل حبيسًا في هذه الأحجار آلاف السنين، يكن الامتنان له؛ لأنه حرر طاقاته المحبوسة بفضل الوِرد الذي كان يردده، وأكد له أنه يحترم العهد ويكن الكراهية لناكثي العهود، يطلب شيئًا مقابل تنفيذ شيء آخر..

- شيء مقابل شيء آخر.. ماذا تقصد؟

تسأل إيمان بوجه مستغرب.

لا تعي نصف الكلام الذي يقوله شهم، تعتقد أن مسًّا أصابه.

- أعطاني فرصة لأن أسأله في اليوم ثلاثة أسئلة عن أي شيء أريد، وهو يجيب مقابل تحريري له.

يصمت مدة ثم يردف:

- أخبرني ما هو السؤال الثالث من أسئلة الفصل الثاني.. هل تذكرين يا أنهار؟

- نعم أذكر.

تقول وهي تنظر إلى شهم بوجه متجهِّم.

يكمل شهم قصته:

- ثم طلبت منه أن أظل بقربك.. فوضعني داخل جسد امرأة تدعى لامار.

- ماذا؟ أنت هو لامار؟

تصرخ أنهار، تحدث نفسها: "الأمر أصبح جليًّا، لهذا السبب تراءى لي وجه شهم معلقًا فوق جسد لامار".

ترتعد إيمان وهي تقول لشهم:

- ماذا طلب منك بازوزو مقابل تحويلك إلى لامار؟

يتهرب من الإجابة، ولكنها تصر وتنضم إليها أنهار في ذلك، يخبرهما أنه قتل شخصًا مقابل هذه الخدمة، يمتعضان، يؤكد أنه كان مجرمًا حقيرًا، يسرق ويخطف الناس الأبرياء.

تظهر جملة على الحائط البابلي: "نحن نحتاج إلى أن نبرم اتفاقًا معك.. سيدة أنهار."، ثم تنمحي الكلمات بسرعة.

تمسك أنهار القلم وتكتب: "ماذا تريد مني؟".

ينمحي السؤال ويظهر جواب بازوزو: "أشياء بسيطة.. مثل خصلة من شعرك مقابل أن نحقق لك طلبًا.. مثلًا نساعدك في العثور على ملفات يخفيها عنك زوجك أحمد قد تنفعك في القضية".

- خصلة شعر.. ما هذا الجنون؟ آسفة.. أنا لن أنجرَّ إلى هذا الهراء.

تقول بنبرة عالية.

ترتعب إيمان، تتوسل بأنهار من أجل الخروج، ترضخ لمطلبها، يودعان شهمًا ويخرجان بسرعة.

*****

(٨) الفضيحة

مرهقة تفكر فيما حدث كأنها في كابوس، لم يرجع لها وعيها إلا عند سماع صوت أبيها وهو يصرخ:

- "القهوة تفور وتنسكب يا ابنتي".

تمسح بقايا القهوة هنا وهناك، تسأل نفسها: "ماذا يفعل الجني بخصلة شعر؟ وهل تستحق أن يقدم من أجلها كل تلك الخدمات؟" الفضول يقتلها لمعرفة ماذا يخفي عنها زوجها السابق أحمد.

أحدهم يطرق الباب.. الجار أبو درة يخبر أنهار أن ابنته درة صاحبة السبع السنوات تريد التحدث إليها في أمر مهم، تنظر بحنان إلى صديقة ابنتها الوحيدة وتقول:

- ماذا هناك يا صغيرتي؟

- انا أحب أن ألعب مع أزل.

- أكيد هي أيضًا كانت تحب أن تلعب معك.

تقول أنهار، تغرورق عيناها وبالكاد تسيطر على نبرة صوتها لكيلا تشعر درة بحجم المصيبة.

- لكنها البارحة خاصمتني وقالت لن تلعب معي إلا إذا زارت أمي غرفتك ورأت ما كتبت على المرآة.

- ماذا؟ ماذا تقولين؟

تقول أنهار وهي تفتش في تقاسيم وجه درة وأبيها عن إجابة لما سمعته؛ يطلب الأب منها مرافقته، دونما وعي، ودونما تردد تجري وراء طيف أزل نحو غرفة درة.

أحدهم كتب بقلم التلوين الأحمر بعض الكلمات على المرآة، درة كانت تقسم أنها أزل لكن لا أحد يملك القدرة على تصديقها. أمها تؤكد ان ابنتها متعبة جدًّا من فراق أزل، لا تزال تحاور خيالها.

الأمور تعقدت وكأنها ضرب من الخيال يصعب تفسيره.

أنهار تضع باطن راحة يدها على فمها، لم تستطع حبس دموعها التي انبجست مثل الينبوع، الكلمات كانت قاسية عليها: "ماما أحبك.. ضعي لدمي ثمنًا واسحقي السُّراق كما فعلت كهرمانة"

تهرب إلى غرفتها، تغلق الباب خلفها، تلقي بنفسها كالقتيل على الفراش، تنهار قواها.

*****

"السياسة فن الممكن"

عبارة تجمِّل عهر السياسة وتلوُّن السياسيين للوصول إلى أهدافهم بكل الوسائل بدون رادع، فيطوعون رجل الدين المتملق والموظف المرتشي والناشط المدني الصاعد الراغب في الأضواء.

أبو زيدون استأجر بعض الصحفيين، بل ورؤساء التحرير ومجلاتهم وصحفهم ليكتبوا عنه ويجمِّلوا قبح سياساته التي انحدرت بالبلد إلى الهاوية.

أغلب الصحف والقنوات تهاجم أنهار، تستهزئ بأسلوبها ولبسها وأي ثغرة يستطيعون النفوذ إليها بينما يغضُّون النظر عن كومة الأخطاء والفضائح التي تحوم حول الرئيس. يتعقبون حسابها في "الفيسبوك" و"تويتر"، يقلبون الصور والتعليقات، يطعنون في أي شيء قابل للطعن.

يستفزها مقال نشرته إحدى الصحف الرسمية في العراق والتي تموَّل من موازنة الدولة: "الرئيس هو صمام الأمان، أعاد للعراق سيادته المسلوبة"، فتفتتح به كلامها ضد منافسها في المناظرة.

- عن أي سيادة تتحدثون؟

تقول أنهار وهي تطرح نقاطًا محددة تثبت أن الرئيس لا يعير أهمية لسيادة العراق وغير معني بالحفاظ عليها، كل طاقمه الوزاري وهو معهم، من مزدوجي الجنسية، تعيش عوائلهم خارج القطر.

كما يصرف الساسة في العراق أموالًا طائلة لإنشاء "لوبيات" في الدول القوية لدعم نفوذهم في العراق، تذكر أسماء شخصيات مرتبطة بأمريكا قبل انهيارها دفعت كثيرًا لتكسب الدعم والتأييد، واتبعت الطريقة ذاتها مع الصين، وإيران، والسعودية، وتركيا، وقطر، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا وغيرها.

بالإضافة إلى القروض السيادية التي تسمح للمقرضين بالتدخل المباشر في سياسة البلد واقتصاده، ناهيك عن الوجود العسكري المباشر لدول عديدة على أراضي هذا البلد.

- نحن نسدد عشرة تريليونات دينار سنويًّا فوائد لديون لا نعلم أين ذهبت.

تتساءل وهي تضرب حصون أبي زيدون، كلامها مدعَّم بالأدلة التي جمعتها طيلة الفترة الماضية؛ قوائم بأسماء المتورطين في صفقات السلاح الفاسد، وأخرى تفضح العقود الوهمية، كما راحت تعدد أسماء البنوك التي تعمل بتبيض الأموال وتهريب العملة الصعبة.

تلقي على مسامع الجماهير اليمين الذي يردده الراغب في الحصول على الجنسية الأمريكية:

"أقسم قسمًا مطلقًا أنني أتخلى عن الولاء لكل أمير وملك ودولة وعن السلطة التي تمنحني مواطنتها؛ وأنني سوف أدافع عن دستور الولايات المتحدة الأمريكية وقانونها ضد كل الأعداء المحليين

والأجانب. وسوف أحمل السلاح نيابة عن الولايات المتحدة الأمريكية عندما يكون مطلوبًا بالقانون، وسأقوم بالمهام غير القتالية في القوات المسلحة الأمريكية عندما يكون مطلوبًا ذلك بالقانون، وسوف أؤدي العمل ذا الأهمية الوطنية ولو بصورة مدنية عندما يكون مطلوبًا ذلك بالقانون، وأنني آخذ هذا الالتزام بجدية وبدون تحفظ نفسي داخلي وبدون تهرب. فليساعدني الله".

- أنتم باختصار لستم عراقيين، أنتم تنتمون إلى الدول التي طلبتم التجنس والحصول على حقوق المواطنة فيها، لماذا لا تطبقون مبدأ الولاء والبراء على أنفسكم؟

الانهيار يصيب المعسكر المناوئ، التشظي يبدو جليًّا على الأحزاب المتمسكة بالرئيس الكارتوني الذي اصطدم بعناد أنهار. يجيب أبو زيدون بدوغمائية بعد كل ورقة تقدمها ضده ويجتر فتات تهم جاهزة، الأدلة لم تكن قاتلة لكنها مزلزلة وتقض مضاجع الفساد.

- إنها جاسوسة وتدير شبكة ماسونية خطيرة.

- لم يعد أحد يكترث لتهمك الباطلة، سيدي الرئيس. أرجو أن تركز وتجيب عن الأوراق التي عرضتها وسأعرضها.

تقول وهي تسحب ملفًا آخر، ثم تكمل وهي تتحدث بصورة هزلية:

- "كيف ستسدد الديون وفوائدها لو انخفضت أسعار النفط؟

أنا أقول لك ماذا ستفعل.. ستبيع أرض الوطن.. ستبيع الموانئ والمطارات وحتى دجلة والفرات".

تكمل وهي تلوّح بيدها:

- "حاجة بربع.. حاجة بربع.. تفصيخ.. يلة يا ولد تعال قرب واشتري.. حاجة بربع.. أرض بربع.. شعب بربع.. حمل وخذ".

يضحك الحضور من طريقة طرحها، تضيف:

- "كيف تتعامل دولتنا مع الارتفاع الحاد في نسبة البطالة والازدياد المطرد للفقراء والمشردين في البلد؟

ندعهم يتظاهرون ثم نقتلهم، وبذلك يقل عدد الفقراء وتنخفض نسبة البطالة".

يغص الحضور بالضحك، تغير أسلوبها، تستخدم الكوميديا السوداء، الضحك والهجاء معًا، تحطم التابوهات اللعينة، تجعل منه هُزْأة، تمزق الهالة التي يستتر خلفها، المذيعة هند تقفز فرحًا وهي تشير إلى شاشة ضخمة وتصرخ:

- المناظرة تحقق نسبة مشاهدة تاريخية غير مسبوقة، العالم كله ينجذب نحو حواركم أيها السيدات والسادة.. ملايين الناس متسمِّرة أمام التلفاز يراقبون الكرَّ والفرَّ بينكما.

لم يعلّق الرئيس، يكتفي بابتسامة صفراء وعيونه تتطاير منها حمم الغضب.

أنهار تتقدم بثبات نحو لجنة القضاء وتضع أمامهم ملفًا، وتقول بصوت جهور:

- هذا الملف يدين الرئيس وكبار المسؤولين في حكومته بتهمة سوء استخدام المال العام، ومحاولة إغراق العراق بالديون الخارجية مقابل عمولات ومنافع سياسية تبقيه هو وزمرته في الحكم إلى الأبد.

يقف يوسف وهو أحد الشباب الذين يقودون الحراك والتظاهر ضد أزلام أبي زيدون، يصرخ:

- "عاش العراق.. عاش الشعب.. الأصنام تهوي.

موطني.. موطني..

الجلال والجمال

والسناء والبهاء

في رُباك

في رباك".

الجمهور يردد النشيد في أجواء هستيرية تقلب كل المعطيات لصالح مرشحة الصدفة التي دخلت وكْرَ اللصوص من غير ميعاد وتحيل أحلامهم إلى كوابيس.

أحد معاوني أبي زيدون يهمس في أذن سيده "لم يعد أمامنا إلا أن نطعن في شرفها".

*****

الساعة الثامنة صباحًا، كعادتها تشرب أنهار قهوتها المرة على أنغام أغنية "زيديني عشقًا"، تتجاذب أطراف الحديث مع إيمان استعدادًا ليوم جامعي دسم حافل بالمحاضرات عن طرق احتساب كلفة المشروع وكلفة الاحتياط والطوارئ والمواطن التي تصرف فيها ومن هو المخوَّل بصرفها، وصلاحيات المموِّل ومدير البرامج وتداخلها مع صلاحيات مدير المشروع، يستمتعان بلغة الأرقام وتحليل الحالات الحية المستقاة من الواقع العملي.

طفلة صغيرة كانت بمعية أحد رواد مقهى رضا علوان تقترب من أنهار، تطلب منها صورة تذكارية وتدعوها باللبوة الثائرة، الأمر غريب أن تأخذ المرأة الشرقية الأضواء في مجتمع ذكوري قاتم. نشوة الانتصار لم تدم طويلًا، فسرعان ما أدركت أن الأيام سجال، يوم لك ويوم عليك.

تدخل الحرم الجامعي، الكل يتهامس ويتنابز وينظر إليها بطريقة لم تعهدها من قبل، أحد طلابها المتمردين ممَّن كانت سببًا في رسوبه العام الماضي يهتف في نادي الجامعة "أرداف رائعة.. ونهدان شيطانان.." الوضع لم يكن طبيعيًّا أبدًا، حتى عندما دخلت غرفة الأساتذة زميلاتها ما توقفن عن الضحك، بينما أعين زملائها الشرهة تمزق الثياب التي عليها وتأكل لحمها.

الحال استمر حتى الظهيرة، تظهر مشتتة في أثناء المحاضرة ويزيد تشتتها تلميحات الطلاب. تسمع أحد الطلاب يقول لصاحبه "وضعية الفرنسي كلش حلوة جانت"، تنهي الدرس قبل وقته، تعود

إلى غرفة الأساتذة. إيمان وحدها تجلس قرب النافذة.

- لماذا تجلسين وحدك؟ هل انتهت محاضرتك؟

- أنهار، الصراع أصبح قذرًا، أنا قلقة جدًّا عليك؟ أعتقد أنه حان وقت الاستسلام.

تقول إيمان بعينين خائفتين وهي تمسك يدها.

- ماذا يحدث؟ تكلمي.

ترفع صوتها قليلًا وهي تخاطب صديقتها، تسحب يدها وتقطب حاجبيها بانتظار الرد.

تعرض إيمان مقطع فيديو تناقلته صباح اليوم مواقع التواصل الاجتماعي. الفيديو عبارة عن شخصين عاريين يمارسان الجنس بوضعيات مختلفة. المونتاج أخفى ملامح الرجل الذي يبدو طويلًا أسمر كأنه يمتلك قوة خمسين حصانًا لا يكلُّ ولا يملُّ، المرأة تشبه أنهار إلى حد كبير، لا بل هي بشحمها ولحمها تمارس الجنس في غرفتها وعلى سريرها الذي كاد يتحطم من مطارحة الغرام، تنهداتها تفضح شدة هيامها.

- هذه أنا.. نعم أنا.. ماذا يحدث؟ هناك شيء خطأ.. أنا لم أزنِ ولم أرتكب فاحشة في حياتي.. إيمان يجب أن تصدقيني.

تقول أنهار وهي تهذي تحت تأثير الصدمة، تشاهد نفسها عارية عري الصحراء، وكل من في الأرض يمكنه مشاهدة فلمها على "اليوتيوب"؛ ما هو موقفها أمام طلابها؟ أمام أهلها وأقاربها؟ كيف

ستبين موقفها أمام معجبيها الذين أصبحوا بالملايين؟

يحمر وجهها واليدان، لأول مرة تستشعر الخطر على نفسها لا على أحد آخر.

تخرج تهرول باكية، تعتكف في بيتها لا تبارحه، ترفض أي مقابلة أو تصريح، ترفض التحدث إلى أقرب الناس إليها، لم ترد على رنين الهاتف المحمول، ولم ترد على أسئلة أبيها الذي طالبها ببيان موقفها.

*****

(٩) حبٌّ بالإجبار

الناس تصدق الإشاعات وكأنها خبر يقين، فيديو المرشحة الجديدة حصد ملايين المشاهدات، ولكن ماذا بعد؟

المرأة الشرقية مهما كان مستواها العلمي والاجتماعي إذا ما اتهمت في شرفها فأمامها خياران: إما القتل وغسل العار، وإما الهروب والعمل في الملاهي لكسب قوتها؛ لكن أنهار رفضت الخيارين والانصياع لحكم القبيلة البدائي والعرف الذكوري. واثقة من نفسها؛ فهي لم ترتكب أية فاحشة على الرغم من أنها لا تملك دليل براءتها، قد تكون من في الفيديو المصور امرأة تشبهها، قد تكون لعبة من ألاعيب المونتاج وفنون التصوير، تفتش في التفاصيل الصغيرة، تبحث عن خيط وإن كان رفيعًا يوصلها إلى فهم الصورة كاملة، إن صح الفيديو فهناك مذنبان يجب محاسبتهما وليس من العدل والإنصاف أن ينال أحدهما حصته من التشهير وينجو الثاني بفعلته، لا بد من أن هناك مستفيدًا من نشر المقطع، شخصًا وثقت به إلى درجة أنها منحته جسدها؛ فهي لم تمارس الجنس خارج إطار العلاقة الزوجية.

تكرر تشغيل الفيديو الذي يطعن في شرفها عدة مرات على الرغم من قساوة الشعور.

تركض نحو أبيها وهي تصرخ:

- أبي.. إنه جسم زوجي.. إنه أحمد.. أنا متأكدة أنه أحمد طاهر.

الزوج ينشر فيلمًا إباحيًّا يفضح زوجته، يهتك عرضه من أجل المال والسلطة والانتقام بعد أن شهَّرت به وبعلاقاته المشبوهة مع أبي زيدون ومتنفذين في الدولة.

الأمر بات لا يحتمل، صارت السياسة عاهرة قبيحة بلا ملامح، كل شيء فيها مباح والحرام فيها حلال، والحلال يحرم من أجل المصالح والبقاء للأفسد والأوقح.

تكوَّرت في حضن أبيها الدافئ كما كانت تفعل كلما ألمَّت بها مصيبة وكأنها تهرب من عالمها القاسي إلى ربوع مدينة أفلاطون الفاضلة.

يضمها وهو محتار ما بين شرفه الذي صار يلاك في مجاميع الفيس بوك الخاصة والعامة، وما بين ابنته المحطمة والمكسورة الفؤاد؛ إنه الانهيار الحزين والشعور المؤلم بأن تعاقَب لمجرد أنك وثقت بإنسان وسلمت له روحك وجسدك.

تذهب إلى بيتها برفقة أبيها، تقف أمام سريرها، تبحث عن الكاميرات التي قد يكون أحمد زرعها، تجدها منصوبة بشكل خفي واحترافي في السقف الثانوي، تتحامل على نفسها، تلملم جراحها، تذهب إلى المحكمة، تحمل بيديها ورقتين والفيديو الذي يصوِّرهما معًا لكن بدون مونتاج، يظهر فيه وجه أحمد جليًّا.

الورقة الأولى تتهم فيها رجل الأعمال أحمد طاهر بالتشهير بزوجته لتضليل الرأي العام، والثانية تطلب فيها الطلاق.

لقد دفعتها الظروف لتلك الزاوية الضيقة، لم تعد تكترث لأحد، لم تعد تهتم إذا خسرت المناظرة أو لا، فقد خسرت أشياء أهم منها.

قبل بدء المناظرة كان لديها عائلة يحسدها الجميع عليها، واليوم تقف في منتصف الطريق وحدها تحارب وحشة المكان بقلب معبأ بالحقد والغل والرغبة الجامحة في الانتقام.

الناس الذين كانوا يهتفون لها ويدعون لها بالفوز باتوا يشتمونها ويدعون عليها بالويلات والعذاب، بل إن بعضهم ينعتها بالزانية.

خروجها كان مقتصرًا على الذهاب إلى الجامعة وعلى قضاء الأمور الاضطرارية فقط، أصبحت أكثر عزلة من ذي قبل.

*****

تقف أمام المرآة، وجهها متجهم، تداعب خصلاتها، تفكّر في العرض الذي قدمه بازوزو، تصارع مبادئها، يسيطر عليها الحقد، تتناول المقص، تقصُّ شعرها الحريري، تمسك خصلة منه، تجثو على ركبتيها، تهرب دموعها من سجن مقلتيها، تحرق الجفون، تشعر بالانكسار بعد أن طُعنت في كل مكان، يتشكل لديها شعور غريب، مزيج بين اليأس والندم والتوق للثأر.

تلبس الأسود الفضفاض، تضع شالًا يغطي التصحُّر الذي أصاب رأسها وأنوثتها، تستر عينيها بنظَّارات سوداء كبيرة، تذهب بمفردها متخفية إلى بيت شهم، تجلس أمامه من غير أن تتفوَّه بكلمة، تسلِّم له خصلات شعرها، ينظر إليها بعينين حائرتين، يمسك يدها، يهمس في أذنيها:

- لا تشعري بالذنب أبدًا يا معلمتي الجميلة، لقد كان زوجك وأنت في فراش الزوجية، لقد سألت بازوزو.

تميط عنها نظارتها، تسحب يدها بهدوء، تجيبه:

- لا يهم.. كل ما أريده هو أن أنتقم ممن آذاني وقتل ابنتي.. سأنذر حياتي لأفعل ذلك؛ فقط أعطِه ما طلبه مني.

يطلب بازوزو أن يلقيا خصلة الشعر في نهر دجلة. تنفذ ما يطلب، تخرج مع شهم نحو ضفاف دجلة، تختار مكانًا منعزلًا عن الناس، يرجوها شهم أن لا تتبع خطوات الشيطان، إنها معركة الرابح فيها خسران، يطلب منها أن تستمع لصوت ابنتها المحذِّر، لكنها لا

تنصت، تسوغ ذلك بأن حزنها فاق التحمل، وأنها لا ترى إلا الثأر، إن اليأس وحده يقود إلى الانتحار، أما اليأس مع الحقد فإنه يولّد التفجير الانتحاري، هل علمت لماذا يفجر الانتحاري نفسه؟ إنه يطعنها من أجل إيذاء الآخرين.

- دعني أكمل ما بدأت.

تقول وهي تنثر شعراتها فوق النهر، تردد كلامًا لقَّنها إيَّاه ذلك الجدار ثم تعود هي وشهم.

تريد معلومات عن الملف الذي أخفاه عنها زوجها، ينصاع شهم لرغباتها، يكتب ما تريد على الطابوق البابلي المسحور، يحذرهم بازوزو بأن هذا الطريق لا رجعة فيه وأنه محفوف بالمخاطر، تقبل كل شروطه.

يخبرها العرَّاب الأكبر، كما يحلو له أن يسمي نفسه، بأن زوجها يخبئ المعلومات في مزرعة يملكها خارج تخوم مدينة السليمانية، في دولة كردستان، شمال العراق، يكتب لها العنوان، تسحب ورقة صغيرة، تسجِّل فيها المعلومات التي حصلت عليها، تهم بالخروج مسرعة، يعترضها شهم، يحذرها ممَّا هي مقدمة عليه، لا يرتضي أن يسبب لها المزيد من الألم والمصاعب، ترمقه بنظرة لم يفهم معانيها، تصر على المضي قدمًا، يطلب مرافقتها، توافق..

*****

تحزم أغراضها على عجلٍ، تستقلُّ سيارتها، التي كانت من نوع "تيكو ٢٠" المطورَّة كليًّا؛ فَالصِّين أغرقت الأسواق بمنتجاتها وطوَّرت كثيرًا من صناعاتها الثقيلة وبخاصة السيارات ذاتية القيادة لتملأ الفراغ الحاصل بسبب تقهقر الصناعات المنافسة في أوروبا وأمريكا بعد أن خرجت منتصرة من الحرب البيولوجية التي عصفت بالعالم، السيارات الصينية ذاتية الحركة، والتي يستمد محركها طاقته من نضائد قابلة للشحن، غزت الأسواق وبخاصة السوق العراقية، فزادت من زحمة شوارع بغداد.

ينظر إليها شهم دون أن ينطق الاثنان بأي كلمة، يعاينان الشوارع فقط كأنما يطلبان هدنة لالتقاط الأنفاس وترتيب الصفوف.

- من حسن حظنا أن الشوارع أقل زحامًا هذا اليوم.. الناس منشغلة بإحياء الذكرى السادسة عشرة لوفاة المرجع الديني السيستاني.. ستكون الطرق سالكة إلى الشمال.

يقول شهم محاولًا كسر جبل الجليد بينهما وفتح باب الحوار وكسر الملل الذي قد يجعل الطريق يبدو أطول من الطبيعي، تمسك هي بقوة بمقود السيارة وتسابق الزمن من أجل الوصول ومعرفة ما يخفيه أحمد عنها.

يتبادلان حوارًا متقطعًا لعدة ساعات، يشعر أنها ليست أنهار التي يعرفها، في داخلها شيء قد انكسر، صارت أكثر قسوة، ولا شيء يعلو لديها فوق رغبة الانتقام الجامحة.

- انظر لقد وصلنا.

تقول وهي تشير بيديها إلى الجبال الشامخات التي تحيط بمدينة السليمانية، مدينة كبيرة في دولة كردستان التي استقلت عن العراق أخيرًا، بعد أن ضمَّت مدينة كركوك التي ما زالت تحتفظ ببضعة ملايين من براميل النفط الأسود.

ظلت دولة كردستان على الرغم من استقلالها تحتفظ بعلاقات طيبة مع العراق، ومنحت كثيرًا من التسهيلات العقارية والمصرفية والسياحية للعرب الوافدين إلى الدولة الفتية لأغراض السياحة أو الاستقرار.

العنوان الذي كتبه لها بازوزو عبارة عن بيت كبير وسط مزرعة. المكان شبه مهجور، ينظران بتلصص عبر نوافذ الشبابيك، تحمل أنهار حجرًا، تهشِّم زجاج الباب الأمامي، بعد أن تتيقن من عدم وجود أحد، تدخل بيت زوجها السابق عنوة.

مكتب للاجتماعات منعزل بعيدًا عن أعين المراقبين لعقد الصفقات، غرف نوم لقضاء بعض الوقت الممتع مع الغانيات، أدوات غريبة وسادية للحصول على أعلى درجات الإثارة، أصفاد وأعضاء ذكرية من السيلكون وهزاز البقعة "جي" وأنواع فاخرة من الويسكي والشمبانيا.

تكتشف مملكة المتعة وجني الأموال غير الشرعي، التي أخفاها عنها زوجها.

تشعر بالأسى على نفسها وعلى السنين التي انقضت معه.

وجدت في المكتب عدة ملفات تخص تعامل أحمد مع سياسيين بارزين في الدولة. دون تردد، تأخذ الأدلة وتلوذ بالعودة إلى بغداد.

يتصل بها أحمد كثيرًا لكنها لا ترد. يرسل إليها رسالة صوتية، تربكها أيما إرباك، تجعل يديها ترتعشان، يرعد ويزبد ويهددها بأنه سيقاضيها لو قدَّمت الملفات؛ لأنه يملك تسجيلًا كاملًا لعملية اقتحام مزرعته موثقًا عن طريق الكاميرات المزروعة في كل مكان، كما أنه يمتلك المزيد من الأسلحة المحرَّمة دوليًّا، سوف يستخدمها ضدها لو لم تنتهِ عما هي مقدمة عليه.

يلاحظ شهم حالتها، يطلب منها أن يقود هو ما تبقى من الطريق بعد أن يتوقفا قليلًا للاستراحة، يركن السيارة أمام مطعم يقع في منتصف الطريق، تمسك رأسها، تبحث عن حبوب مهدئة، الصداع يكاد يقتلها، تسمع صوت ابنتها في كل مكان، تناديها:

- "ماما.. ماما.. لا تنزلقي في مستنقع الدم.

ماما.. لا تنقادي لطريق الحقد المظلم".

تتلفَّت يمينًا ويسارًا، تطالع مصدر صوت ابنتها الخفي، يتدخل شهم لبعثرة غيوم همومها، يمسك يدها ويهمس باسمًا:

- دعي هذه المشاكل خلف ظهرك.. يقدم هذا المطعم كبابًا لا يقاوم.

ترد بابتسامة تتصنعها بصعوبة على ثغرها:

- لا أستطيع تناول أي وجبة.. سأكتفي بالحساء.

يقحمها شهم في حوارات متنوعة، يجتهد في إخراجها من غياهب حزنها وتوجعها، عقدة الذنب تلاحقه، هو من أقحمها في كل هذه الصراعات كما أن قلبه يميل إليها، عيناها تلهم وجدانه فيمطر شعرًا.

- هل أعجبتك الكلمات التي أُرسلها إليك بين الحين والآخر؟

يقول وهو يلاحظ السكينة تعود إليها، ترد:

- نعم، كانت جميلة لكنني أعتقد أنها جزء من التمثيلية التي أديت فيها دور لامار ببراعة.

- كل تصرفاتي على الرغم من حماقتها نابعة من قلبي الصادق والمحب لك.. شِعري كان أصدق ما أقول.

تحمرُّ وجنتاها، تبتسم وتشيح بوجهها عنه، يستغل الموقف، يلقي أبياتًا كتبها في طريق العودة:

أعلن هبوط أول إنسان على سطح قلبي

يعشِّش

يخربش

يزرع حبقًا

يرقص ألقًا

يبني قلاعًا وقصورًا
يعمر أرضًا كانت بورًا
يسكن وتين القلب وشغافه
يرسم سوسن الثغر ورضابه
يزيِّن جدرانًا تَعسا
يزيل همومًا حبلى

لم يكن شاعرًا جهبذًا، لغته التي بالكاد تحبو اخترقت قلبها وأوقفت نزيفه الدامي، تظل تعيد أبياته طيلة طريق العودة، تسترق النظر إليه وهو يقود السيارة، يلمح نظراتها، يدخل الفرح إلى قلبه، يشعر أن حبها لم يعد مستحيلًا، وأن الطريق إلى قلبها صار معبدًا، ينظر إليها وهي تغفو، تعود طفلة، ينعكس شعاع الشمس على وجهها فتتلألأ الجواهر والنفائس، يتوقف أمام منزلها، يلتفت إليها ويهمس:

- أنهار.. أنهار.

تستيقظ، تتلفَّت حولها، ترى بيتها فتطمئن، يردف:

- أنت متعبة، ادخلي كي ترتاحي، سأستقل سيارة أجرة إلى بيتي.

- شكرًا، هذا لطف منك، طريق السلامة.

تنزل وهي تودعه بلسانها وعينها، يكمل هو:

- تبدين أكثر إشراقًا وأنت ترتدين الوشاح كمن يضع إطارًا مزخرفًا للوحة جذابة.

تبتسم وتدخل بسرعة إلى بيت أبيها كأنها تهرب من لسانه المعسول، تقاوم الانزلاق من جديد، تفضل التأني وعدم الهروب من الحزن إلى المجهول.

تعتكف في غرفتها، تراجع الأوراق التي حصلت عليها من وكر زوجها السابق، مسرحية أبطالها موظفون فاسدون وتاجر جشع لا حدود لجشعه، عقود وهمية، تهريب سلاح ومخدرات، مواد غذائية وطبية مسرطِنة، اتفاقات مع مليشيات للحماية وتصفية الخصوم، أمور لا تحدث إلا في بلاد العجائب، بيع مطار ومنافذ حدودية تابعة للدولة، بل الأنكى من ذلك استيراد كميات ضخمة من الأرز الفاسد الذي لا يصلح للاستهلاك الحيواني فضلًا عن أن يصلح للاستهلاك الإنساني بأبخس الأسعار، لكنه يكلف الدولة ملايين الدولارات، تم تزوير الفحوصات ورشوة الموظفين ليصبح أرزًا فاخرًا من الدرجة الأولى، يتم توزيعه على الناس؛ عوائل تسممت وأبيدت بالكامل، لم يحاسَب أحدٌ ولم تلقَ اللائمة على أحد.

لم تعد قادرة على الغوص في تفاصيل جرائم أحمد طاهر، تسأل نفسها، هل هذا بشر؟ كيف عاشت معه كل هذه السنين مخدوعة دون أن تكتشف زيفه وخداعه؟

تشعر بالدوار، ينتابها الغثيان، يعود صوت ابنتها فيلاحقها:

- ماما.. اهربي سيقتلونك.. لا تشتركي معهم. لا تدخلي حظيرة الخنازير.

- أزل.. أين أنت يا حبيبتي؟

تقول وهي تتلفت حولها.

تركض نحو النافذة، البقع الحمراء تحاصر وجهها واليدين، تشعر بالخطر، يتصل بها شهم، يطلب منها أن تغادر المنزل فورًا، بازوزو أخبره أن أحمد أرسل جماعة للتخلص منها.

- أنهار، الأمر ليس مزاحًا، اهربي.. اهربي الآن.

تتصل بأبيها، تحذره، لم يكن في البيت، يتسامر مع صديق له، تخبره بما حصل، تصرخ أن الأمر جِدٌّ بينما هو يضحك، يقول لها:

- "كل شيء بالقسمة.. يا ابنتي الغالية".

تلحُّ عليه بأن لا يعود إلى البيت، يرضخ، يطلب منها أن تسبقه إلى منزل إيمان وهو سيلحق بها.

تتفاجأ إيمان بقدوم صديقتها، لا تفهم ما تقول، لكنها تشعر بخوفها، تضمها إلى صدرها وهي ترتجف مثل قشة تواجه هبوب ريح صفراء عاتية، تنزع وشاحها، تشهق إيمان عندما ترى منظر أنهار وهي صلعاء جرداء، تجلسها أمام الموقد، تطلب منها تفسيرًا.

أنهار مرتعدة، تروي لإيمان تفاصيل تنفيذ الاتفاق مع بازوزو، عيناها شاخصتان تراقب دقات الساعة، تنتظر عودة أبيها، تتصل به فلا يرد، تحاول مجددًا بلا جدوى. يتصل بها أحمد، يخبرها أن رجاله احتجزوا أباها، السن بالسن، المستندات مقابل أبيها، يتوعد أنه سيصل إليها قريبًا، تصرخ في وجهه:

- كيف لي أن أتأكد؟ دعني أسمع صوت أبي.

- أنهار.. يا حبيبتي.. تعلمين أنني لا أمزح في العمل.. مع ذلك سأدعك تسمعين صوت أبيك.

- أبي.. هل أنت بخير يا بابا؟ قلت لك أن تهرب لماذا تأخرت؟

- ابنتي أنا بخير لا تدعي هذا الكلب يستغلك، افعلي ما يتوجب عليك فعله.

يتحدث إليها بهدوء غير مبالٍ بتهديد زوج ابنته الذي أعطى أنهار مهلة قدرها ثمانٍ وأربعون ساعة قبل أن يرسل إليها رأس والدها مفصولًا عن جسده..

تنتابها نوبات ذعر وهيستيريا، تفقد أعصابها، تحاول إيمان تهدئتها دون فائدة، تطلب أن ترافقها إلى بيت شهم، تطمع في مساعدة بازوزو.

- الوقت متأخر يا أنهار، وأنت في حالة غير متزنة.

- لا وقت لدي، هل ستأتين معي أم لا؟

- حاضر.. حاضر.. سأغير ملابسي.

تقول إيمان، ويعتلي جبينها علامات تعجب كبيرة، لكنها تجاري صديقتها، تقف إلى جانبها في هذه الظروف الصعبة.

تكبس دواسة الوقود بقوة، تغادر بغداد صوب بابل حيث بيت شهم، تسأله أن يطلب من بازوزو خدمة، ينفذ أمرها من غير أن يفهم التفاصيل، لكنه عرف من ذعرها وهلعها أن أمرًا جللًا حدث للتو، يكتب على الجدار السحري ما تريده أنهار، يرد هو مرحبًا ويبدي رغبته في سماع الطلب، تأخذ أنهار القلم وتكتب: "هل أبي في قبضة أحمد طاهر؟"

يكتب الحائط: "نعم".

تعود وتخط بيدها سؤالًا ثانيًا: "هل سيقتله إن لم أسلم له الأوراق؟".

يعم الصمت، لم يجب بازوزو، تكتب له: "أجب..".

يرد: "إذا لم تسلميه الأوراق سيقتل أباك.. وإذا سلمتِها له سيقتلك لاحقًا".

تضع كفها على فمها وهي تبكي، لقد دخلت في عنق الزجاجة، لا بد أن تخسر أحدًا، نفسها أو أباها، لا تستطيع قدماها حمل جسدها من وهنها، تجلس على المقعد، تشعر بصعوبة التنفس، يجلب لها شهم قدحًا من الماء.

تقف من جديد، تمسح دموعها، تكتب على الحجر: "أريد أن أتخلص من أحمد دون أن أخسر أحدًا ومن غير أن أسلم الأوراق له".

تعقد إيمان حاجبيها وهي تضع يديها حول صدرها، لغة جسدها توحي أنها ترفض ما تفعله صديقتها، هي تتصرف من غير تفكير.

يكتب بازوزو من جديد بعد برهة من الصمت: "تمارسين الجنس مع شهم".

ثم يكمل: "يمكن لصديقتك أن تبقى وتستمتع بالمشهد أو ترحل.. سيكون أمرًا ممتعًا.. صدقيني.. هههههه".

ترمي أنهار القلم نحو الجدار، تبتعد أنهار خطوتين إلى الوراء وهي تصرخ:

- أيها السافل، الوضيع.. هذا يكفي لم أعد أحتمل.

يزداد الضغط عليها، أحمد يتصل من جديد، يسمعها صراخ أبيها تحت وطأة التعذيب، تمسك إيمان يدها، تضع عينها في عينَي صديقتها وتهمس:

- أنهار، يجب أن نخرج من هنا بسرعة؛ هذا الجدار اللعين يتلاعب بنا.. لا تستمعي إليه.

تستدير أنهار نحو شهم وكأنها لم تسمع كلمات إيمان وتقول:

- هل ترغب ببعض المتعة أيها الولد اللعوب.

على الرغم من أن مقاصد بازوزو تنسجم مع نوازع شهم النفسية، فإنه لم ينبس بأي كلمة، واكتفى برفع كتفيه مستغربًا من طريقة كلامها.

تقاطع إيمان كلام أنهار الذي بدا غريبًا ومستهجنًا وترد عليه بنبرة حادة:

- هل تودين أن تصبحي عاهرة أيتها الدكتورة الجامعية أنهار؟

- لقد فقدت كل شيء، ابنتي وزوجي، والناس يتداولون مقاطعي الإباحية، فهل أنتظر أن يقتل أحمد أبي أو أن يدخل رجاله القذرون إلى غرفة نومي ويقتلونني؟ قولي لي ماذا أنتظر؟

تتراجع إيمان إلى الوراء وتكمل بصوت متهدِّج:

- سأنتظرك في السيارة، لن أشاهد هذه الرذيلة.. سيكون هذا آخر عمل أقوم به معك، أنهار.. لدي عائلة أعتني بها.

ألقت أنهار قميصها عنها، تساعد شهمًا بفتح أزرار قميصه، تواجه صدر شاعرها العاري، تقبِّله، تطارحه الغرام بعنف وهي تنظر إلى الجدار السادي، تشعر أنه يستمتع وهو ينظر إلى جسمها الأملط وهي تتلوى فوق شهم المستسلم كليًّا، الذي كان يحلم كل يوم بأن يختلي بمدرسته الجميلة ويلمس جسمها الملتهب، ولكن لم يتخيل أبدًا أن يفعل ذلك في هذه الظروف وتحت هذا الضغط الرهيب.

يكتب بازوزو: " مشهد رائع، ماذا تقترحان أن نسميه؟ حب بالإجبار، الرذيلة أقوى من الحب، هههههههه".

- أنت مجرد مختل.. منحرف.. أريد أبي الآن.

تصرخ أنهار وهي تستر عورتها، يجيب هو على الحائط: "شهم، أدر التلفاز على إحدى القنوات الإخبارية".

خبر عاجل يظهر أسفل الشاشة باللون الأحمر: "فرقة خاصة من الشرطة تقبض على رجل الأعمال المعروف أحمد طاهر وتودعه السجن على ذمة التحقيق في مجموعة متنوعة من قضايا الفساد، وتحرر رجلًا كهلًا كان يحتجزه لأسباب مجهولة".

تهاتف أباها، يرد بأنه بخير وأنه عاد إلى البيت.

- ألم أقل لك أن كل شيء قسمة وقدر يا ابنتي؟

يقول وهو يطمئنها عن حاله، تغلق الهاتف وهي فاغرة فاها، تتقدم نحو بازوزو وهي تغمغم:

- من أنت أيها الجدار اللعين؟ كيف استطعت أن تفعل ذلك في دقائق معدودات؟

*****

(١٠) الشاهدان

هل تتغير ملامح الإنسان بتغير كمية الشر والخير في داخله؟

تبدلت تلك الدكتورة الجامعية ذات الوجه الملائكي البريء، التي أفنت عمرها من أجل طلابها، لا تلتقي بصديقتها إيمان إلا فيما ندر، يلاحقها شعور مقيت بالدونية لما فعلت مع شهم، لكنَّ جزءًا منها يسوِّغ تلك الفعلة بأنها السبب في إنقاذ أبيها وكف أذى زوجها السابق الذي لن يتركها تعيش في سلام وهي تملك كل تلك المعلومات الخطيرة التي تدينه وتدين كبار المسؤولين في حكومة أبي زيدون.

تقرر أن ترمي كل تلك الصراعات خلف ظهرها وتمضي قدمًا في المناظرة حتى النهاية، تتأهَّب للجلسة المقبلة التي حددها القاضي شرف الدين نهاية الأسبوع، أي بعد ثلاثة أيام من اليوم، ليس هناك متسع من الوقت، ترتب أوراقها من جديد، تفكر في الشخص الذي أرسل لها يخبرها أنه يملك معلومات مهمة، تتصل به عدة مرات، تفلح واحدة منها، يجيب بارتباك، يوافق على مقابلتها في أحد مطاعم بغداد العامة، تتلفف في وشاحها وتذهب للقائه خلسة.

جمال موظَّف تدرج في وظيفته منذ أكثر من عشرين عامًا، عاصر أبا زيدون عندما كان موظفًا بسيطًا في وزارة المالية وشهد وقائع كثيرة تدين الطرق غير المشروعة التي كان قد سلكها الرئيس في التسلق إلى هرم السلطة.

- هل أنت على استعداد لأن تشهد ضد أبي زيدون في المناظرة؟

تسأله أنهار وهي ترى في عينيه التردد والارتباك، لكن ليس لديها بُدٌّ ولا تملك خيارًا آخر.

- أنا.. أنا... مناظرة وكاميرات.. سأفكر في الموضوع.

يقول ويشيح بعينه عنها، يفرك يده، ينزع نظارته الطبية السميكة ثم يعيدها، يرسل سحائب من اللعنات على الحظ العاثر الذي جعله يراوح مكانه بينما وصل من هو أقل منه كفاءة إلى مناصب عليا، يعاني من الإحساس المفرط بالمظلومية بالإضافة إلى فوبيا الاختلاط الاجتماعي وبخاصة الجنس الآخر، يشعر بالراحة عندما يختان نفسه ويجلدها.

تطلب منه ضرورة الحضور، تمسك يده، تطمئنه، تخبره أن الأمر مصيري، وأن البلد يعتمد على شهادته، يومئ برأسه إيجابًا.

- هل أنت السيدة أنهار؟

تقترب منهما فتاة تحمل ميكروفونًا، تنظر إليها أنهار بحنق وكأنها تقول في داخلها: "بدأ إزعاج الصحافة يلاحقني".

يتبعها عدة صحفيين آخرين، وأسئلتهم تداهم لقاءهما، تحرك شفتيها في استياء، تجيل نظراتها بحثًا عن جمال الذي غاص بين الجموع، ترفض الإجابة، تهرب منهم وهم يتبعونها من غير كلل أو ملل، تركب سيارتها وتعود أدراجها إلى البيت.

تقدم طلبًا إلى لجنة القضاة المشرفة على المناظرة لاستدعاء السيد جمال ليشهد على ملفات تدعم طرحها ضد منافسها قبل أن

تعود إلى البيت، تطمئن على أبيها، تقبِّله وتصعد إلى غرفتها، تعصب رأسها، الصداع يحاصرها، صوت أزل يعود من جديد، يوشوش في أذنها:

- ماما.. ماما.

هناك كثير من المجرمين الذين تلاحقهم صيحات الأمهات الثكالى.

دم الشهداء يملأ المكان..

- أزل أين أنت يا ابنتي؟ اشتقت إليك كثيرًا.

- "ماما.. لا تدخلي النفق المظلم. ماما.. سينطفئ الضوء الذي يضيء بصيرتك.. ماما.. ماما.. لا تنزلقي في مستنقع الدم".

لا تشاركي في السِّرك وتصبحي مهرجة مثلهم؛ فحتمًا سينهار السِّرك على رؤوس الممثِّلين.

- "أزل أنا أفعل كل هذا لكي أنتقم ممن آذوك وآذوني وفرَّقونا ودمروا حياتنا. أزل.. أزل.. أين أنت يا ابنتي؟".

تقول وهي ترتجف وتزيح الأثاث من مكانه بحثًا عن مصدر صوت ابنتها.

يعم صمت شفيف، الصوت يختفي، يخلِّف إعصارًا يضرب تلافيف دماغها ويحدث في خلاياه الدمار والخراب.

تغفو على الكرسي من الإرهاق حتى الصباح.

*****

تطلُّ من جديد إلى قاعة المناظرة، أتعبتها الليالي المسهِّدة والمؤرقة، وشاح أسود يغطي شعرها، هيئتها منهكة، الوجه الذي كان مُشِعًّا انطفأت جُذوته، تنتظر حضور جمال الذي تأخر، تتصل به فلا يرد، تبلع ريقها، تشعر بالإحباط، تتلفت حولها فلا تجد صديقتها إيمان، لأول مرة تتغيب عن مؤازرتها.

تفتتح هند المناظرة بعبارة مثيرة:

- إنها المناظرة الأطول والأكثر مشاهدة في تاريخ العراق منذ أن تحول نظام الحكم إلى رئاسي.

تلتفت نحو الرئيس وتكمل:

- جلسات المناظرة ما زالت حبلى بالمساجلات والنقاشات التي ستحدد ملامح الرئيس القادم، لنترك الفرصة للمرشَّحَين لطرح الأسئلة.

تشير بيديها إلى أبي زيدون الذي يبتسم بخبث كأنه يخفي شيئًا ماكرًا، يبدأ هو بالمباغتة:

- سيدة أنهار، هل سيحضر شاهدك المزعوم؟

- من؟ الشاهد.. نعم.. أعتقد.. قد يتأخر قليلًا.

تقول بصوت مرتبك، يقاطعها هو من جديد:

- جيد جدًّا، لنستغلَّ وقت انتظاره بشيء مفيد.

يلتفت إلى الجمهور ويكمل في استهزاء:

- هل من الممكن أن تشرحي للحضور ملابسات مقطع الفيديو الفاضح الذي انتشر في مواقع التواصل الاجتماعي؟

تنفتح عيناها ثم تطرق برأسها، تصمت قليلًا، تجيب في استكانة:

- زوجان يمارسان حياتهم الزوجية في غرفة نومهما.

تبلع ريقها، تسيطر على أعصابها بصعوبة، ثم تكمل:

- قام أحمد بتصويرنا، ونشر الفيديو بمجرد أن أحس بأنني سوف أكشف صفقاته المريبة.

يقهقه أبو زيدون، تعابير وجهه ولغة جسده تطعنان في كلامها، لكنها لم تهتم لإيحاءاته السمجة وقبحه الصاهل، تنظر إلى الساعة التي تثرثر دقائق، تعود منكسرة إلى منصتها تقلّب أوراقها خاليةَ الكنانة، تفقد الأمل بمجيء شاهدها، تبحث عن خطة بديلة.

تتفاجأ بأن أبا زيدون قد أعد شاهدًا، الطبيب الذي يعالجها من الاكتئاب والحالة النفسية الصعبة التي مرت بها بعد مقتل ابنتها والمصائب التي لحقتها.

- دكتور، هل أنهار مؤهَّلة نفسيًّا لحكم البلد الذي تعصف به المحن ويعاني هذا الكمَّ الرهيب من المشاكل؟

يسأله أبو زيدون وعينه ترمقها، يوضح الطبيب أنها تعاني من انهيار عصبي خطير، ما زالت تسمع صوت ابنتها وتتراءى لها أشياء غير موجودة، تتناول عقارًا مخصصًا للحالات النفسية المعقَّدة.

- باختصار، من الناحية الطبية، السيدة أنهار غير مؤهَّلة للعمل تحت ضغط.

يرد بطريقة تثلج صدر الرئيس والدولة العميقة التي خلف ظهره، تتجه أنهار نحو لجنة القضاة، تخبرهم أنها ليست على دراية بأمر الشاهد الذي حضر، لم تكن مستعدة، كما تنتقد الطبيب بأنه خالف أخلاقيات مهنته؛ إذ كيف يبوح بأسرار مرضاه أمام العلن.

- سيدة أنهار.. سننظر في أمر المخالفات لاحقًا، هل لديك ما تجيبين به على كلام الطبيب؟

يرد القاضي شرف الدين، تظل مبهوتة، مناورة أبي زيدون قصمت ظهرها، لا تعرف بماذا تجيب، وهي فعلًا تعيش ما بين الواقع والخيال، حدثت معها أمور لا يصدِّقها عقل ولا يقبل بها منطق.

- أنا.. أنا.. فعلًا أسمع صوت ابنتي.. تحذرِّني من بطش الساسة القتلة والمجرمين.

تقول وهي تعلم أن لا أحد من الحاضرين يصدِّقها، تلحظ ذلك في أعينهم.

- شكرًا لك حضرة الطبيب.. هذا كل ما أردنا سماعه.

يقول أبو زيدون للطبيب الذي يهمُّ بالخروج بعد أن سمح له القاضي بذلك، يلتفت الرئيس إلى أنهار ويكمل:

- الرئاسة حمل ثقيل وضغط لا يوصف، لن تقدري عليه، قد تسوء حالتك أكثر.. أنا من هذا المنبر أدعوك للانسحاب.

- حتى وإن اتهمتني بالجنون، حتى وإن رميتني بشرفي، حتى وإن قتلت ابنتي أمام ناظريَّ، حتى وإن خسرت المناظرة وفزت أنت

بدورة أخرى للرئاسة، سأظل أطاردك وأكشف زيفك.. لقد كرست نفسي لكشف ألاعيبك وألاعيب الأحزاب والدول التي تقف خلفك.

تجيب وسط ذهول أبي زيدون وأتباعه، لسان حاله يقول: "من أين لك كل هذا العناد والجبروت؟".

تمنح هند استراحة قصيرة للمتنافسين لشرب الماء وترتيب الأوراق من جديد بعد هذه الجولة حامية الوطيس، تذهب بالكاميرا إلى فاصل إعلاني، تعود بعدها لتعطي الوقت لأنهار لتسأل الرئيس سؤالها..

- أستاذ أبا زيدون.. هل يمكن أن تعود بالذاكرة إلى الفترة التي كنت فيها موظفًا صغيرًا في بداية حياتك المهنية؟

تسأل منافسها، تجترُّ حديثها مع جمال، لتصنع منه قنبلة ترميها في المعسكر المناوئ، تحاول فكَّ الحصار الذي فرضه عليها، يهتز كيان الرئيس، يتغيَّر لونه كأنها تسلط الضوء على حقبة مظلمة من حياته، يدنو أحد محامي الرئيس منه، يهمس في أذنه، يزرع في رأسه فكرة، يصيغها في جملة:

- إذا كان لديك دليل فتكلمي وإلا فاصمتي.. لا تطلقي التهم جزافًا، بيتك من زجاج فلا ترمي الناس بالحجار، أنت عار على العراقيين، لقطاتك الفاضحة تملأ صفحات الإنترنت.

كلامه بمنزلة إطلاق النار عليها، تجاوز حدود المناظرة ليتجنب الإبحار في ماضيه القميء، ينجح في استفزازها وجرِّها إلى الإسهال الكلامي والتراشق بالألفاظ البذيئة، يضطر القاضي شرف الدين لفض

عراك الديوك، يؤجل المناظرة إلى ما بعد غدٍ.

- ماذا حدث لشاهدك، دكتورة أنهار؟

يقول أحد المراسلين وهو يقحم ميكرفونه مباشرة في وجه أنهار التي تهمُّ بالهروب من أسئلتهم دون جدوى.

- لا أعرف.. حاولت الاتصال به ولكنه لا يرد.

تجيب، لكنَّ مراسلًا آخر يقاطعها:

- هل سيحضر في مناظرة بعد غدٍ؟

- لا أعلم.. عليَّ الذهاب.. شكرًا لكم.

تردُّ بضيق وتشقُّ طريقها وسط الجموع لكن أسئلتهم تلاحقها: "هل زوجك السابق أحمد طاهر هو من كان معك في مقطع الفيديو؟"، "هل كانت الكاميرا مزروعة في غرفة نومك دون علم منك أم كان يحملها شخص ثالث؟"، "هل ترتدين الوشاح للتكفير عن الخطيئة أم أن أحدًا أجبرك على لبسه؟".

تقفز داخل سيارتها، تطلب من السائق الإسراع، تهرب إلى بيت أبيها وهي تصارع الكم الهائل من الأسئلة التي اقتحمت عقلها من غير استئذان وتحوَّلت لسياط لا تتوقف عن جلدها.

تتصل بجمال مرارًا وتكرارًا من غير إجابة وكأن الأرض انشقَّت وبلعته، تشعر أنها لن تهزم غريمها من غير شهود وملفات قوية.

تهاتف شهمًا، تطلب منه أن يسأل جداره السحري: "لماذا لم يأتِ جمال إلى قاعة المناظرة؟".

يخبرها شهم أن بازوزو يرفض أن يسأله هو عوضًا عنها، وأن عليها أن تحضر هي بنفسها.

تستشيط غضبًا، تأمر سائقها بوجه واجم بشد الرحال نحو بابل من جديد.

تصل عند الغروب، يستقبلها بحبور، تدلف إلى الداخل، تقابل الطابوق البابلي وجهًا لوجه، تكتب عليه سؤالها، يرد بعد برهة: "لقد هدده الرئيس ثم أغراه.. استعمل معه طريقة العصا والجزر".

- هذا ما توقعته.

تقول وهي تنظر إلى شهم الذي يبدو من غير ملامح، تعود وتسأله من جديد:

-"ما هو عنوان جمال؟".

يكتب بازوزو العنوان في أحد أحياء مدينة الأعظمية.

تدوِّنه على يدها، تتعجل بالخروج، تقف أمام الباب، ترجع إلى الجدار، تقول لشهم:

- هل من الممكن أن أستنفد الأسئلة الثلاثة لهذا اليوم؟

يحرك رأسه بالموافقة، تمسك القلم وتسأل سؤالها الأخير:

- "كيف أضمن ولاء جمال على الرغم من مغريات أبي زيدون؟".

يتأخر في الإجابة، يسود الصمت لبرهة، تظهر حروف شيطانية على الجدار: "جمال ليس بحاجة إلى المال لكنه يعاني من عقدة الارتباط بأنثى ولا سيما إذا كانت امرأة مغرية مثلك".

يتوقف عن الكتابة، الفضول يقتل أنهار، تكتب له:

- "وماذا بعد؟"

تعاود الجمل الظهور: "لقد ظل يتخيلك عدة مرات بعد أن قابلته ومارس العادة السرية عدة مرات بسببك، واحتلم عندما لاح طيفك في منامه، إذا أوهمته بأنك أنثاه الوحيدة، لن تكسبي ولاءه فقط، بل سيكسر أصنامه ويعبدك".

فغر شهم فاه، أمسك يدها يرجوها أن لا تغوص في هذا الوحل وتهرب قبل هبوط الجائحات، ويخبرها أنها ستندم حين لا ينفع الندم والبكاء، تتجاهل تحذيراته، وتتذرع بأن الوقت قد فات وأنها مجرد هيكل إنسان حزين من غير روح.

- لقد خرجت روحي مع روح أزل.

تقول وهي تخرج، تهرب بعينها منه، يضرب كفًّا بكفٍّ أسفًا عليها وهو يشاهدها تصعد إلى سيارتها مصمِّمة على النزال، لا للفوز بل للثأر.. الثأر فقط، غير مكترثة بالتنازلات التي قدمتها وستقدمها.

*****

لم تعد أزل تزور أمها، اختفى صوتها الطفولي الهادر، تشتاق أنهار إليها.. على الرغم من انشغالها تشتاق إليها، تتذكر كل تصرفاتها فتخنقها العبرة، تذهب لتزور درة كلما أضناها الحنين.

- هل تتحدثين إلى أزل؟

تسألها وهي تخفي دمعتها بصعوبة.

الطفلة تنظر إلى أمها ثم تخبر أنهار: إن أزل غاضبة منك، أنت لا تنصتين لتحذيراتها، تقول إنها لن تعود مجددًا إن لم ترجع أمها إلى وعيها.

- حسنًا يا صغيرتي، إذا زارتك أخبريها أن أمها لن تدع قاتلها يعيش في سلام، سترسله إلى الجحيم يومًا ما.

ترمي تلك الكلمات وتكفكف دموعها الهاميات، تعود إلى غرفتها، تفكر في شاهدها، تتصل به لا يجيب كالعادة، ترسل له رسالة، تهدده، تخبره أنها عرفت عنوانه وستأتي إلى بيته، يتصل بها بارتباك.

- ماذا تريدين مني، أنا لا أستطيع مواجهة الرئيس والمليشيات المرتبطة به؟

تقول له بصوت غنج شديد الإغراء:

- أحتاج منك خمس دقائق فقط، لأستوضح بعض الأمور ولن أزعجك ثانية.

- حسنًا.. حسنًا خمس دقائق فقط.

- رائع.. سألقاك بعد ساعة من الآن.

تفتح خزانة الملابس، تختار فستان سهرة أسود مكشوف الكتفين، تضعه على جسمها، تغير رأيها، تستبدله بفستان أحمر أكثر التصاقًا يعلو ركبتها قليلًا، تلبس عقد اللؤلؤ والقراط الذهبي والخواتم الربيعية المغرية، تضع عطرًا فرنسيًا أخاذًا.

تزور شقته المتواضعة، آثار العزوبية تملأ المكان، أثاث بسيط يخلو من لمسات الأنثى، تلتف حوله مثل الأفعى، تدمر دفاعاته وسنين عبادته وخشوعه، يأبق من وحدته، ويتشبث بأهدابها كبدوي يلتهم جسمها بكلتا يديه بعد دهر من الصيام.

تخبره أنها أعجبت به، فيتعهد لها بأنه سيحضر جلسة المناظرة حتى لو نصبوا له المقاصل.

تعدِّل ملابسها، تطبع قبله على خده المتهيِّج، تنهي مهمتها وتودِّعه.

*****

(١١) الولوج إلى المجهول

جمال يجلس باسطًا يده فوق ذراعي المقعد الخشبي وسط قاعة المناظرة، متحنطًا مثل تمثال مستكين، ينود برأسه مذعورًا، يواجه لجنة القضاة، يشيح بوجهه عن نظرات الرئيس الحانقة وكأنها تتوعده شرًّا، يتفرَّس في جسم أنهار، يجترُّ اللقطات المثيرة التي طبعت في دماغه في أثناء مطارحتها الغرام.

- شاهدي تعرَّض للتهديد من قبل أبي زيدون شخصيًّا، ولديَّ تسجيل يثبت ذلك.

تقول أنهار وهي تسلم لجنة القضاة قرصًا مدمجًا يحتوي على تسجيل المكالمة التي جرت بين الرئيس وجمال.

يصهل أبو زيدون، يتهجم على منافسته والشاهد، يحاول كعادته أن يأخذ الحوار إلى منحى آخر، يشوِّش على الهدف الذي تقصده أنهار لكنها لا تكترث، تدير ظهرها عنه وعن عويله، لقد أوجعته وقضَّت مضجعه فالموجوع دائمًا يصرخ، ترجع إلى الوراء خطوتين، تقترب من جمال وتسأله:

- أستاذ جمال، هل لك أن تخبرنا ماذا تعرف عن أبي زيدون؟

يزفر زفرة في السماء ويتفحص الحضور ثم يبدأ بسرد القصة، وكيف حصل هو وأبو زيدون على عمل بسيط في وزارة المالية، وكيف انتمى أبو زيدون إلى حزب متنفِّذ لديه مليشيات سائبة، تسرح

وتمرح دون حسيب أو رقيب، فهدد رئيس قسمه الأسبق بالتصفية ليحلَّ محله، استغلَّ منصبه لتمرير تسهيلات للمقاولين مقابل عمولات ورُشى.

يهبُّ محاميه لإسكات صوت الشاهد بأي ثمن.

الحضور في القاعة متسمِّرون لا يرمشون من هول المعلومات التي يسمعونها، يقاطع الرئيس كلام جمال:

- إنه مجرد كاذب يتكلم من غير دليل.

يطلب القاضي من فريق أبي زيدون الالتزام بالهدوء ويسأل جمالًا فيما إذا كان يمتلك أدلة تشهد على ما يقول.

يبرز الشاهد ملفًا يحتوي على كثير من الأوراق ويُعلم لجنة القضاة أن كل الكلام الذي قاله وسيقوله مثبت في هذا الملف.

تتكئ أنهار على منصتها بأريحية، ترد نظرة المكر لمنافسها وهي ترى الغضون قد كثرت في وجهه الشاحب الذي يتفصَّد عرقًا، يدير خاتمه العقيق حول خنصره بحركة يكتنفها الارتياب، يبدو أنه حتى الأحجار الكريمة قد بطل عملها أمام اللبوة الثائرة.

يكمل جمال طرحه ويفجر قنبلة الموسم، يدعي أن الرئيس زوَّر شهادة الدكتوراه ليحصل على منصب وزير المالية، يرفع بيديه المرتجفتين الشهادة المزوَّرة أمام الجميع، الصخب والفوضى يعمان المكان، يفقد الرئيس توازنه، يشتم ويسب جمالًا، وأنهار مثل كلب مصاب بالسعار يملأ الزبد شدقيه.

القاضي شرف الدين يعلن انتهاء فعاليات المناظرة بالكامل ويتعهد بأن يعرض على الملأ الأدلة التي جمعتها لجنة القضاة. يحدد نهاية الشهر المقبل موعدًا لبدء الصمت الانتخابي، وبعده بعشرة أيام موعد الانتخابات، ويصادف العاشر من كانون الثاني لعام ٢٠٤٠. سيحدد إدلاء العراقيين بأصواتهم الرئيس من بين المرشَّحَين، الرئيس السابق أبي زيدون أو الدكتورة أنهار.

الناس منقسمون أشد الانقسام بين رئيس فاسد ومزوِّر، يحتمي وراء مليشيات مستذئبة، تنهش جسد الوطن وتسرق قوت أبنائه، وبين امرأة تدور حولها الأقاويل، يطعن بعضهم في شرفها، وصورها الفاضحة تملأ الرحب.

*****

مرت عدة أيام على انتهاء المناظرة، أنهار تعتزل الناس ولا تخرج من المنزل إلا للضرورات القصوى، تحصل على إجازة طويلة من الجامعة، تحاول الاتصال بإيمان، لكن صديقتها تتهرب تحت حجج وذرائع شتى، يتصل بها جمال أكثر من مرة لكنها لا ترد، يرسل لها رسائل فلا تجيب، كل شيء تغيَّر، أنهار اليوم تولد من ركام أنهار قديمة..

تضع اللمسات الأخيرة على برنامجها الانتخابي الذي بنته على أساس علمي رصين، يتضمن ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى، توفير بيئة مناسبة لاستقطاب رؤوس الأموال الداخلية والخارجية عن طريق إيقاف ابتزاز المقاولين وحصر السلاح بيد الدولة، ومحاربة الفساد الإداري والمالي، وتحديث قوانين الاستثمار وإلغاء الروتين، وضخ دماء جديدة وشابة في مفاصل الدولة ومواضع صنع القرار.

المرحلة الثانية، تتضمن تحويل الموازنة العامة من موازنة نفقات إلى موازنة برامج وأداء، وتخفيض النفقات وتعظيم الواردات عن طريق تنشيط القطاع الخاص وتقليل التزامات الدولة التي ترهق الموازنة، والتركيز على مشاريع تجلب قيمة مضافة لخزينة الدولة.

أما المرحلة الثالثة، فهي ترتكز على التوقف عن الاقتراض وجدولة الديون السابقة، والاتجاه نحو رفاهية المواطن وتقديم خدمات تليق به.

تعيِّن شركة مرموقة لإدارة حملتها الدعائية، تجري عدة مقابلات تلفزيونية، تتعرض للانتقاد من قبل وسائل إعلام أبي زيدون وحلفائه، يمزق بعض أفراد المليشيات لوحاتها الإعلانية، ويشوِّهون بعضها الآخر، يضيفون بقلم "الماجك" الأسود حلمات بارزة على صدرها للتذكير بالمقاطع الفاضحة التي صورتها عارية، يراهنون على النزعة القبلية والدينية لدى الشعب العراقي، اللتين تعارضان وبحزم تولي امرأة متبرِّجة ومتحررة شؤون البلاد والعباد.

شخصيتها الجدلية تحدث لغطًا كبيرًا في أوساط العامة ولدى الطبقة السياسية التي بات بعض أفرادها يعتقدون أن أنهار مدعومة

من الصين لتغيُّر النظام الذي أنشأته أمريكا مناصفة مع الجارة إيران.

تتلقى بين الفينة والأخرى دعوات لعقد تحالفات مع هذا الفصيل أو ذاك لدعمها في الانتخابات مقابل الحصول على مكاسب في الحكومة الجديدة فيما إذا فازت، بعض قادة الأحزاب مثل البهلوانات بدون مبادئ؛ يبرمون الصفقات مع كل المرشحين للرئاسة لضمان حصصهم من المغانم.

أبو لظى يهاتف أنهار، يطلب مقابلتها، تتردد في البداية لكن إصراره يضعها أمام الأمر الواقع، يحضر إلى منزلها، يفتل لحيته ويخبرها أنه مبعوث من أبي زيدون شخصيًّا لتسوية الأمر، الحكم في العراق معقد، تلتقي فيه عدة مصالح وتحالفات داخلية وخارجية، بعضها معلن وبعضها يدار تحت الطاولة.

- لا يمكن لأبي زيدون التنحي.. يمكن أن تطلبي ما تريدين.. الأمر لا يسير كما تعتقدين.

يقول لها وهو يصوب عينه نحو جسمها، يتفرَّس فيه، بينما هي لا تبالي، تضع قدمًا فوق قدم أمامه وترد:

- وإذا رفضت؟

- أنهار، لنتكلم بصراحة، نحن من قتلنا ابنتك، نحن من حاولنا قتلك وأغرينا زوجك ليصورك في غرفة النوم ويخطف أباك.

- أيها الكلب الحقير.

تقف وهي تصرخ في وجهه، تحاول أن تنادي الحرس لكنه يقاطعها، يهددها بشكل مباشر وصريح بأنه سوف يقوم بتصفيتها جسديًّا مع أبيها الليلة إذا لم تعلن انسحابها من سباق الرئاسة قبل الساعة السابعة مساءً، يخرج من غير أن ينتظر ردها، يتوقف عند الباب، يلقي كلمات مسمومة:

- نحن على علم بمشاويرك إلى بابل وعلاقتك بذلك الشاب، شهم.

ينظر اليها نظرة نازية ويضيف:

- نحن نعلم بأنه زوَّر توقيعك في طلب الترشح للرئاسة، ترشحك في الأصل باطل وكل ما بني على باطل فهو كما تعلمين باطل، إنها مخالفة بعلمك أيتها الأستاذة الجامعية، وقد تنهي مستقبلك الوظيفي وتضمن السجن لطالبك المحبوب.. لا تنسي قبل السابعة.. حافظي على نفسك وعلى ما تبقى من عائلتك..

يتركها تحترق بنيران الحقد والظلم، لم يعد في مقلتيها دمع تذرفه، تنظر إلى نفسها في المرآة وكأنها تودع نفسها للمرة الأخيرة، تركب سيارتها وتتجه إلى بازوزو الذي أصبح ملاذها الأخير، تلجأ إليه عند كل نائبة..

*****

شهم يجلس في باحة المنزل كأنه ينتظر قدومها، شعره كث، وجهه ترهقه قترة، يراقب دون اكتراث بعوضة تحاول جعل دمه وجبة عشاء دسمة، تتفقده أنهار بتمعن، تسأل عن حاله، تحاول جره للكلام، ينظر إليها نظرة غريبة، يجيب بتنهد:

- هل تعرفين، فعلًا.. الكثرة تغلب الشجاعة؟

عيناك غلبت قلبي، لكن التشظي يسطو على مهجتي والتناقض يضرم النار في خافقي، يسحق أناملي، يحيل شعري سرابًا وحبي هباء، يتبعثر، يتلاشى خلف أسوار حقدك.. الحروف تأكل لحمي.. الصراع في داخلي يمزقني.. يحيلني إلى عاجز عن تمييز الأشياء كحاطب الليل.. ألم يحن الوقت لتترجل روحك عن صهوات الثأر الذي أحال حديقة قلبك المزهرة إلى لوحة سوداء قاتمة.

يتوقف عن الكلام قليلًا، يطالعها والشحوب يسيطر عليه كساهر ليلة مؤرقة، يضيف:

- أنت تعلمين أن الحب لا يحيى مع القلب التوَّاق للانتقام.

- وماذا تريدني أن أفعل؟ أنت من زجني بهذه المهزلة.. يجب أن تخجل من نفسك، أنت السبب في كل هذه التداعيات.. أنت من زوَّر توقيعي للترشح إلى الرئاسة وأنت من سلَّمني إلى بازوزو.. أنت شاعر لبق صعَّر للشيطان خده.

تطلق زفرة في الهواء، بينما يستحيل بياض عينه إلى أحمر قانٍ.

يحاول أن يجيب لكنها تقاطعه وتكمل:

- على أية حال، لن أزعجك بعد اليوم.. هذه آخر مرة أحتاج فيها إلى جدارك السحري.

تدلف إلى البيت من غير أن تنتظر منه تسويغًا، تمسك القلم بصرامة وتكتب من غير مقدمات:

- "ماذا تريد مني كي أفوز بهذه الانتخابات اللعينة؟".

أصوات مرعبة تصدح من كل حدب وصوب، أشباح وشياطين يرددون أراجيز وترانيم بلغات غير مفهومة، تتقهقر مرعوبة، يدخل شهم يتفقدها، يقف على بعد باعين منها ويسألها:

- ماذا طلبت منه لتحدث كل هذه الجلبة؟

صوت بازوزو الجهور لم يترك الفرصة لأنهار لتجيب على تساؤلات طالبها، لأول مرة يسمعان صوته بدل الكتابة:

- "أنا الملك العظيم بازوزو

سيد الجن والشياطين في مدينة بابل العريقة

سأتوجك ملكة لبلاد الرافدين

سألبسك العسجد واللازورد

سأنسج ثوبك من الشمس الجوناء

سأسقي أعداءك العرهون المميت والسم الزعاف

أدعوك إلى أن تدخلي مملكتي..

فحضارة البشرية بدأت في بابل وستنتهي فيها".

ينفتح الجدار، تتردد في الدخول، تنظر إلى شهم، يحرك رأسه رافضًا، تجف الأقلام، تحرق خلفها جميع المراكب، تختار السلطة على الحب، النفوذ على الأشعار، الانتقام على التسامح. ثمن التراجع باهظ قد يودي بحياتها وحتى حياة أبيها وشهم والمحيطين بها في حرب كل من فيها قذر.

تودِّع شهمًا بعينيها الدامعتين، تقفز نحو المجهول، ينسدل الجدار.

يثور شهم، يركل الجدار بقدميه، يرعد ويزبد، يصرخ لكي يعيد له أنهار، قوة هائلة تلفظه خارج المنزل، يصاب برضوض وكسور، الدم القاني ينزف من أنفه، يسمع أحد الجيران أنينه وتوجعه، يهرع ويحمله إلى المستشفى، يتصل بالشرطة، وعلى الرغم من تأوهه لا أحد يصدقه، جاره يطلب منه أن يترك الكحول الذي يتعاطاه، يعتقد أنه مجرد مدمن أفرط في الشراب، جميعهم يعتقد أنها مجرد هلوسات.

*****

(١٢) الاستعداد للمواجهة

تعود إلى بيتها بعد يومين، ووجهها شاحب، غادرته قطرات الدم، ولم تعد تحتاج الذهاب إلى بابل لتتلقى المساعدة، الشيطان أصبح قرينَها، لم تعد نقية كما كانت، يسكن في روحها ويسيطر على عقلها وتصرفاتها، يطلب منها أن تستأجر شخصًا ممن تثق بهم لقتل جمال وإلصاق التهمة بأبي زيدون باعتباره المستفيد الوحيد من العملية، تفعل ما يريد من غير تردد، وكأنما ديدن اللاهثين وراء بهرج السلطة أن لا يحفظوا فروجهم وتتلطخ أيديهم بدماء الأبرياء.

تخفي أفعالها عن أبيها الذي يكتفي بمراقبتها عن كثب، يطرح بحذر نصائحه لكنه لا يجد آذانًا مصغية، فقد أوغلت أنهار في غياهب بحر مظلم وعميق القرار. يقنعها بفكرة زيارة قبر ابنتها في النجف لعل المشهد يعيدها إلى رشدها ويرجح كفة الخير في داخلها على الشر الذي باتت أسهمه في تصاعد.

تلبس ثوبها الأسود الفضفاض وتضع وشاحها الذي تركته قبل فترة وجيزة بعد أن نبت شعر رأسها وراح يداعب غضروف أذنها العلوي.

يقص عليها قصصًا وقعت له في الأيام الخوالي، يحاول أن يحقنها بمضاد للحقد والانتقام، يروي لها كيف تعرف على أمها،

قصة عشق قل نظيرها، كانا من طائفتين مختلفتين، شاب شيعي يقع في حب حسناء سنية داخل حرم جامعة بغداد، يهيم بها إلى حدَّ الجنون، تعشقه عشقًا صوفيًّا متبتلًا، تضع الحرب الطائفية أوزارها، يؤجج لهيبَها المتصارعون على السلطة، يطيش الحقد برأس الناس، حرب داحس والغبراء تعود في القرن الواحد والعشرين بعد ميلاد المسيح، الجار يقتل جاره، يطرد عياله، يستولي على بيته، الفتاة تلوذ مع أمها وأبيها هربًا من نار الجاهلية إلى الشمال، يلتاع الشاب بسياط نار الشوق الحرَّاقة، يفكر في الانتحار.. لا.. يتراجع، يقرِّر أن يحزم أمتعته ويحمل كفنه على راحتيه ويتَّجه إلى الموصل، قصة شغف وتحدٍّ للموت، قصة شيعي مجنونٍ بحبِّ سُنِّية تسكن في الموصل في زمن التكفير والقتل على الهوية.

- ماذا حدث بعد ذلك؟ إنها قصة مؤثِّرة لم أسمعها من قبل.

تقول لأبيها، تطالع تقاسيم وجهه الذي بدا عليه التعب وهو يسترجع أوجاعه مع القصة، لكنه يتناسى الماضي وأوجاعه عندما يراها تفرك جبينها من صداع ألمَّ بها.

- هل رأسك يؤلمك يا ابنتي؟

- نعم، كثيرًا.. لكن لا يهم.. أكمل القصة، أنا متشوقة لسماع التتمة..

يتبع الشاب خطى فتاة أحلامه، يذهب نحو المجهول، يقتحم الموصل في ظل احتدام الاقتتال الطائفي، يطرق بابها بشجاعة،

ويفاتح أباها، يوافق وتوافق هي بشرط وحيد، وهو أن تكمل دراستها العليا وتبحث عن وظيفة تليق بها، وأن لا يثنيها هو عن ذلك، بل يقف إلى جانبها ويساعدها..

يتوقف عن الحديث برهة، يطالع ابنته التي تتألم من صداع رأسها، يرفع رأسه إلى السماء ويكمل:

- لقد كانت عنيدة مثلك تمامًا، لا يمكن لأحد ردعها عما هي مقدمة عليه، أخذت شهادة عليا في التربية والتعليم الابتدائي، بحثت عن وظيفة حكومية فلم تجد، طرقت كل الأبواب فلم يقدِّر أحد شهادتها، قررت هي وزميلتها أن يفتتحا مدرسة خاصة بهما، عملا بجد ومثابرة حتى تضاعف عدد المنتسبين إليها، فصار الطالب الواحد عشرة، وأصبح العشرة مئاتٍ، تحفران في الصخر، يذيع صيت المدرسة. تذوقت حلاوة تعبها لكن أعداء النجاح والوطن كانوا بالمرصاد، يأتي دور العصابات المسلحة المنفلتة لتبتزهم، يسرقون جهد المجتهد كالطفيليات التي تقتات على الأجساد المثابرة، يفرضون إتاوات شهرية، الملهى يدفع ٥٠٠ دولار شهريًّا، والبار يدفع ٣٠٠ دولار شهريًّا مع المشروب المجاني، والمدرسة وصالون النساء يدفعان ٢٥٠ دولار شهريًّا. تتصدى لهم، ترفض الخضوع، تذكرهم أن المدرسة لتعليم أولادهم، لا يهتمون، يزيدون في تهديدهم، تتصل بي، أرسل لها دورية شرطة، يفجرونها، يرسلون لها ورقة تهديد، لا تقبل الانكسار، يُردونها قتيلة هي وصديقتها، وتقيد القضية ضد مجهول.

- إنهم نفس القتلة، عصابات ترتبط بعصابات أكبر.

تقول أنهار، الحزن يملأ قلبها وهي تسمع قصة مقتل أمها لأول مرة بعد أن أخفى عنها أبوها الحقيقة طوال حياتها، كذب عليها حين أخبرها أن والدتها قضت نحبها في حادث سيارة.

ألم رأسها يزداد، تعتذر لأبيها، تخبره أنها لا تستطيع مواصلة الرحلة، يومئ برأسه موافقًا، تطلب من السائق أن يعود أدراجه إلى بغداد.

ترجع إلى الوراء، تسند ظهرها إلى المقعد، ترفع يدها، تداعب بأناملها الهواء، كأنها تلمس يدًا لا أحد يراها إلا هي، ينظر إليها أبوها باستهجان، يهمس في أذنها:

- هل أنت بخير يا ابنتي؟ هل زال ألم رأسك؟

تنظر إليه، لا تنبس بكلمة، تكتفي بالابتسامة، تحول ناظرها نحو نافذة السيارة، تداعب خصلات شعرها، يهدأ وجعها تدريجيًّا، تجلت لها فكرة شيطانية.

تتصل بأبي لظى، تبلغه برغبتها بأن تلتقي بالزعماء النخبة في البلد، رؤساء أحزاب ومليشيات، شيوخ عشائر، ورجال دين.

يلبُّون دعوتها، يهرعون إليها وكأن وحيًّا أخبرهم بأنها ستفوز، يتخلَّون عن أبي زيدون الواحد تلو الآخر، يتركونه يواجه وحده غضب الشارع الذي يغلي، جوع دقَّ العظم وفساد نخره حتى النخاع.

- لننحِّ خلافاتنا جانبًا ونفكر في مصالحنا.. سأعطيكم أكثر مما يعطيكم أبو زيدون.

تقول وهي تترأس اجتماعًا تشاوريًّا مع الصفوة، الشيخ جلال يهب في وجهها ويصرخ:

- ماذا تقصدين بـ"سأعطيكم أكثر مما يعطيكم أبو زيدون"، نحن لسنا للبيع، كفى سرقة لقوت الفقراء.

تقترب منه وهي تتمايل ميَّاسة القد، تهمس له والهواء الدافئ الصادر من فمها يداعب شحمة أذنه:

- شيخ جلال لقد حصلت في حقبة الرئيس السابق على وزارتي الزراعة والصحة، وقد درَّت عليك هاتان الوزارتان أكثر من ثلاثة ملايين دولار، ولدي كل الملفات التي تثبت ذلك، سأزيد حصتك من المدراء العامين والدرجات الخاصة، ودعك من هذه الشعارات الزائفة التي لم تعد تنطلي على أحد..

يصمت الشيخ، لا يقوى على الحركة، المغريات تحيله إلى مشلول؛ فغرائزه تستثار بالمال والجنس وقد حصل عليهما.

يصهل ثانٍ، يجلس في نهاية الطاولة:

- وعلى ماذا نحصل نحن؟

تبتسم، خطتها تنجح، بل خطة بازوزو، بل خطة تحالف شياطين الإنس والجن تؤتي أكلها، تجيب:

- كم صوتًا جمعت في الانتخابات السابقة، وكم صوتًا تتوقع أن تجمع هذه السنة؟

يرد بلهفه كهِرٍّ يلهث وراء شحمة:

- حصلنا وبفضل من الله وحمده على خمسمائة ألف صوت، وسنحصل على مثلها هذه السنة إن شاء الله.

- جيد، ستحصل على وزارة، رشِّح لي وزيرًا حاصلًا على شهادة جامعية وسأوافق عليه.

تتوقف قليلًا ثم تكمل:

- احرصوا على أن تحصلوا على ضمانات مفتوحة من مرشحيكم لتلافي أية ألاعيب ولتأكيد الولاء.. لا نريد مشاكل.

تمشي عدة خطوات، تتوسط القاعة، تقول بصوت جهور:

- لنوقِّع اتفاقية شرف، أنتم تدعمونني مقابل حصص في الحكومة المقبلة وحسب الاستحقاق الانتخابي ومشاركة أطياف الشعب كافة، لكن قبل ذلك تفضلوا لنتناول وجبة الغداء معًا.

تمتد أياديهم لتمزق الخرفان المطروحة على صحون الأرز، يزدردون اللحم الضأني بنهم وهم يفاوضون على أصوات الفقراء الذين وثقوا بهم وانتخبوهم، يلوكون بشراهة لقيمات هنا وهناك من صحون الوليمة التي أقامتها أنهار على نخب توقيع اتفاقية الشرف.

تقف أمام الباب تودعهم الواحد تلو الآخر، تستثني أبا لظى، تدعوه لاجتماع منفرد، تصب له الشاي بيديها، تطلب منه أن يحدث بلبلة في البلد، يجب أن يعي الشعب أن قلع أبي زيدون بات ضرورة ملحَّة، أريد أن تنشر مجاميع الموت في كل أرجاء العراق، تفجيرات هنا وهناك، اغتيال أطباء ومهندسين وناشطين مدنيين وصحفيين.

يتلعثم في البداية، الأمر ليس بالهيِّن، مهمة محفوفة بالمخاطر، إذا انكشفت فستقع الكارثة، لكنها تغريه بالمال، وحصة الأسد في الحكومة التي سوف تشكلها.

يخرج من بيتها متوهجًا، يفكر كم ستدر عليه المغانم التي حصل عليها؟ كم جزيرة سيشتري، كم فندقًا وكم مركزًا تجاريًّا؟

بينما هي تشعر بالغثيان، تنتابها رغبة ملحَّة في التقيؤ، تضطرب تشك في أمرها، تذهب خلسة وعلى عجل إلى الصيدلية، تشتري مادة اختبار حمل منزلي، يظهر النتيجة إيجابية، يوجد جنين في بطنها، تنظر إلى المرآة مندهشة، تمسك رحمها وتكلم نفسها، "هذا ابنك يا بازوزو.. هذا ابنك يا ملعون.. لقد فعلتها".

تبتسم ابتسامة ماكرة وكأنه وسوس لها أمرًا.

تطلب من الرجال الذين يحرسونها إحضار شهم من منزله.

*****

يحضر شهم ورجال غلاظ يحيطون به من اليمين واليسار، يده اليسرى مكسورة وتتماثل للشفاء، ما زال يربطها بلفاف وجبس، وضعه يرثى له، تستقبله بفستان مغرٍ وعطر يُزهِر الأرض الصلدة من شدة عبقه الأخاذ.

- مبروك.. شهم، لقد أصبحت أبًا.

- أنا.. ماذا؟ عن ماذا تتحدثين؟ مني أنا؟

- طبعًا.. هل تذكر ذلك اليوم عندما طلب منا اللعين بازوزو طلبه الغريب؟

- أنا.. لا أعتقد.

تحاول معه بكل الطرق، تمارس معه الإغراء مع بعض أنواع التهديد المبطَّن، تذكره بأشعاره وحبِّه لها، فدائيته في الدفاع عنها، كما تذكره بالسجن إذا ما انكشفت عملية تزويره لطلب الترشح.

- شهم، نحن خلقنا أحدنا للآخر.

تقول له بغنج، تمسك يده، تنقذ ما تبقى من أطلال حبه لها، تنجح أخيرًا في إقناعه بالزواج منها.

*****

دكتور نيكمان مدير حملة أنهار الانتخابية يكثف جهوده، لا يتبع الطرق الكلاسيكية للتعريف بمرشحته وترويج برنامجها الانتخابي.

نيكمان طويل وأمرد، يربي عثنونًا كثيفًا، يداعبه بين الحين والآخر، يدير بنجاح منذ عقدين شركة للدعاية والترويج للمرشحين، نجح مع عدة شخصيات مرموقة حول العالم.

تصرف أنهار بسخاء على حملتها الانتخابية من الأموال التي كسبتها في قضيتها ضد زوجها الثري، كما أنها حصلت على تبرعات ضخمة من تجار ورجال أعمال محليين ودوليين أملًا في حصولهم على مكاسب وعقود مستقبلًا إذا ما تحقق لها الفوز.

تطلب من نيكمان ومساعديه الحضور إلى بيتها في اجتماع مصغَّر، تطرح عدة أفكار شيطانية، تعرض شراء ذمم أصحاب المنابر والقنوات الإعلامية.

- كل قناة تبث مجانًا للناس هي في الحقيقة تروِّج لسلعة ما قد دُفع ثمنها.. أصحاب التجارة يعرفون أن كلمة "مجانًا" ما هي إلا شبكة العنكبوت التي تصطاد الزبائن.. لا يوجد شيء مجاني يا نيكمان.. لا يوجد أبدًا.

تقول منفعلة وهي تضرب بيدها على الطاولة، وتخوِّله شراء ذمة من يعرض ذمته للبيع منهم، توعز إليه أيضًا أن يعين كثيرًا من الجيوش الإلكترونية، يعملون ليل نهار لإنشاء صفحات وتجمعات

تمتدح المرشحة الجديدة وتجمِّل صورتها بينما تذم منافسها وتشهِّر به ثم تكمل:

- أريد أن تعري أبا زيدون أمام الرأي العام.. حتى لو اضطررتَ إلى أن تنتج مسلسلًا كارتونيًّا لتسخر منه.

تصمت لبرهة، تضع أصبعها على ذقنها، تفكر قليلًا ثم تردف:

- أطلق عليه اسم " أبو زيدون الوسخ".. أي شيء مثير للسخرية.. يجب أن نكسر حاجز الخوف ليسهل التطاول عليه من قبل عامة الناس.

تكمل هذه الملف معه، تنتقل إلى ملفات جديدة في جدول أعمالها المزدحم، تحول ناظرها نحو شابين يجلسان في نهاية الطاولة، الأول شاب أكتم، يحلق شاربه ويطلق لحيته التي بالكاد اكتملت، يلبس زيًّا إسلاميًّا، يرتدي عباءة مرعِزاء، ينظر إليها بوجل، يداعب خرزات مسبحته بشكل منظم مع حركة شفتيه الخفية، يردد وِردًا يحفظه.

- دعوني أعرفكم على المقتدر بالله، شاب عصامي مستقيم.

تقول للحاضرين، تطلب منه أن يعرف بنفسه، يلقي كلامًا مقتضبًا وينصرف بعد أن اتفقا على جلسة أخرى لوضع تفاصيل خطة العمل.

- ما حاجتنا برجل دين فتيٍّ؟ نحن نشتت جهودنا..

- نيكمان، أنا امرأة علمتني الحياة أن أصبح "ميكافيلية"،

ومشكلتك أنك تحب اتباع القوانين التي فيها تنافس حر وأخلاق فرسان، أما هنا فلا توجد إلا قوانين الغاب، لقد قُتلت ابنتي وهي طفلة لا ذنب لها، لقد كانت كبتلات الورد، كنجمة تضيء سمائي.

تتأوَّه ثم تردف:

- نيكمان افعل ما أقول لك؛ فقد كابدت ما كابدت في هذه المعركة الوسخة، ولا تتكلم معي عن الطرق النظيفة في التعامل مع هؤلاء.

تتحسر.. تخرج إلى البلكونة، تسحب سيجارة تدخِّنها، يلحق بها.

- يجب أن نخلق صنمًا يعبدونه.. الناس هنا تصغي للأصنام أكثر من إصغائها للطبيب والعالم.. يخبرهم كيف يأكلون وكيف يلبسون، متى يثورون ومن ينتخبون.. هل فهمت الآن؟

تكمل بينما يصمت هو لبرهة، ثم يجيب:

- أنا.. نعم.. أنا هنا لأنفذ سياستك سيدتي.

- ولد طيب.

ترد بابتسامة، تشرح نيتها حول حقن رجل دين شاب في المجتمع، يغدق المال على البسطاء والفقراء من العامة، يكسب رضاهم، الناس تقبل الرشوة من رجل الدين، بل ويعتبرونها بركة أو ثوابًا وجزءًا من الدين.

تخطط أن تصنع خطًا دينيًّا معارضًا ومنشقًّا عن الأحزاب الدينية القابضة على السلطة والمتحكِّمة بسياسة أبي زيدون.

- هذه هي الخطوط العريضة وسنتكلم لاحقًا عن التفاصيل.. دعني الآن أدعو أسعد لينضم إلينا.

تقول وهي تعود إلى الشاب الآخر الذي ينتظر دوره بهدوء، شاب أخطل، تخرج حديثًا في كلية الفنون، ثوبه سمل، شظف الحياة يلقي بظلاله على سحنته، لكنَّ بقايا بريق الأمل ما زال يشع من عينيه.. مستعد لأن يفعل أي شيء من أجل تحقيق فرصة عمره.

يقف وينتف شعره، يمثل بصوت جهور مشهدًا سياسيًّا ساخرًا:

- كان هناك سباق بين ثلاثة أجهزة مخابرات دولية، المخابرات الصينية والأمريكية بالإضافة إلى المخابرات العراقية، يقتضي السباق البحث عن أرنب وسط حشائش الغابة الكثيفة، استغرق الأمريكيون أربع دقائق بينما احتاج الصينيون ثلاث دقائق للوصول إلى الأرنب، ولكن المخابرات العراقية ذهبت ولم ترجع، مرَّ يوم ثم يومان.

يرفع أسعد نبرة صوته:

- هل تعرفون ماذا وجدوا؟

ينظر إليهما ويكمل:

- لقد كانوا يعذبون حمارًا ويقولون له: "اعترف.. هيَّا اعترف وقل إنك أرنب".

هكذا يتعامل جهاز أبي زيدون القمعي مع المواطنين، يعتبر الناس مذنبين لانتقادهم فحسب سياسته الرعناء.

تبتسم أنهار ابتسامة خفيفة، يثيرها حماسه قليلًا.

- ارتجالك جيد، وشخصيتك مليئة بالطاقة، لكن هذه "القفشات" مطروقة سابقًا.. أريد أن أسمع المزيد..

يتشقلب وهو يقلد إلى درجة كبيرة صوت أبي زيدون ثم يكمل:

- قال أبو زيدون مرة لصديقه الصيني: كيف تسرقون البلد، أريد أن أتعلم منكم؟ قال الصيني: انظر إلى هذا المشروع.

يقول أسعد وهو يشير بيديه إلى مبنى، ثم يغيِّر صوته:

- هذا كلفنا مئة مليار دولار، سرقنا منه عشرة مليارات، نحن نسرق قرابة ١٠ % من قيمة المشروع.

يعود إلى تقليد صوت أبي زيدون:

- أنتم متخلفون جدًّا في السرقة، انظر إلى هذا المشروع.

يشير إلى الفراغ حيث لا مشروع.

- هذا المشروع الفضائي كلفنا مئتي مليار دولار.

تنظر أنهار إلى نيكمان وتقول:

- ما رأيك؟ أرى أن لديه طموحًا جامحًا، لكنه ما زال يحتاج إلى المزيد من التدريب ليصبح محترفًا.

يتدخل أسعد:

- أنا ممكن أن أفعل أي شيء في سبيل تطوير نفسي وتحقيق حلمي.

- وما هو حلمك؟

- أن أقدم برنامجًا كوميديًّا مشهورًا.

- سأوفر لك كل الإمكانيات لتقديم برنامج، أما أن تكون مشهورًا فهذه مسؤوليتك.

- وأنا لن أخيِّب ظنَّك.

تدير وجهها نحو نيكمان وتطلب منه أن يتابع مع أسعد إنشاء برنامج كوميدي يبث ليلًا ونهارًا، ويكون هدفه وشغله الشاغل هو ضرب أبي زيدون في مقتل.

*****

(١٣) العودة إلى المربع الأول

يوم الانتخابات العصيب، بعد أن مرت فترة الصمت الانتخابي بسرعة، تأخذ أنهار قسطًا من الراحة، تضطجع على ظهرها بعد أن أخبرتها الطبيبة المشرفة عليها أن حياة الجنين في خطر، وأنها لم ترَ أبدًا حالة مثل حالتها، نبضاته سريعة وشكله غريب، نصحتها أن تسقطه لأنه قد يولد مشوهًا، لكنها تصرُّ على الاحتفاظ به، تؤمن أن شأنه سيكون عظيمًا.

تدنو ساعة الحسم، الكل يترقب النتائج ولكنها تجلس في البلكونة تمدُّ يدها إلى السماء تداعب الهواء، تدندن بترانيم غريبة، تقف فجأة، تتلفت يمينًا ويسارًا، تغمغم بصوت منخفض: "أين أنت يا بازوزو؟"

تدخل مهرولة إلى الداخل وكأنها تلحق شبحًا، تقف متسمِّرة أمام التلفاز، خلف الأريكة التي يجلس عليها أبوها وزوجها شهم الذي ينتبه لوجودها، يمد يده ليمسك بيدها.

يصرخ المذيع في التلفاز: "٣٩ % لصالح أبي زيدون، ٦١ % لصالح الدكتورة أنهار.. الشعب يختار أنهار رئيسة جديدة له".

تضع كلتا يديها على فمها وتجهش بالبكاء، ولكن كانت هذه الدموع لأول مرة دموع الفرح الغاليات، يحضنها زوجها، ترفع عينها إلى الأعلى وتبتسم، ينتبه أبوها إليها، ينظر إلى حيث تنظر فلا يجد

شيئًا، يشعر بالقلق من حالة ابنته وسط الغبطة التي تعتريه بفوزها.

يرن هاتفها مبارِكًا، وزراء وأمراء ورؤساء دول وسفراء يهنئون الرئيسة الجديدة.

*****

يمضي كثير من عمر حكومة أنهار وهي تزداد تنمرًا وتسلطًا، الفساد تشعَّب وتضخَّم ولم ينحسِر أو يقِل، والبلاد تنحدر من سيِّئ إلى أسوأ، الناس تنتظر المخلِّص الذي يجلب الخير ويغيِّر الحال المائل، ولكنهم يصطدمون من جديد بنظام المحاصصة البغيض، والمناصب تباع وتشترى لمن يدفع أكثر.

- أهلًا وسهلًا بكم مرة جديدة في المناظرة لحسم سباق الرئاسة لعام ٢٠٤٤.

يصدح صوت هند وقد رسم الدهر على ملامحها بعض آثاره، تتقدم خطوتين ثم تكمل:

- رحِّبوا معي برئيسة البلاد أنهار والمحامي الشاب ليث.

الدكتورة الجامعية المكافحة والعصامية أنهار تجد نفسها تقف في المكان نفسه الذي كان يقف فيه أبو زيدون، الظروف قذفتها إلى المنصة نفسها التي كانت تنتقدها وتكيل لها الاتهامات، تستخدم الأساليب الملتوية نفسها التي استخدمها سلفها.

تُقلِّب أوراقها، تجد قصيدة قد دسَّها شهم في ملفها، تطالعها على عجالة قبل بدء المناظرة:

قالت: أتحبني؟

قلت: لا..

إني أعشقك

والعشق أسمى غايات الحب

أنتِ قدري النازل.

كررتْ سؤالها بعد عشرة أعوام

أما زلتَ تحبني؟

قلت: لا تسألي

فأنت حبيبتي رغم الرعود

وأنت مع برد علاقتنا

تبقين الدفء الهائل.

وبعد خمسة عشر عامًا

عادت تقول: أتحبني؟

قلت: لا

لم أكمل

صار اللسان عليلًا

صار الحرف ثقيلًا
لا أعرف..
كيف تحوَّل الحبُّ السرمدي
إلى قبح صاهل.

ترفع حاجبها، تهزُّ يدها، تمزق الورقة وترميها في سلة المهملات وهي تبتسم ابتسامة صفراء، تُعدِّل ثوبها خلسة من غير أن تلفت انتباه الحاضرين، تهمس بصوت غير مسموع: "توقف يا بازوزو.. هذا ليس وقت المزاح."

*****

القصائد

الحب الدافئ

يا شذرات العقيق
يا أعبق الرحيق
يا طيفًا دافئًا..
وسط الصقيع

العاشق المرهق

متعب ما بين السندان والمطرقة
أكبح جماح نفسي التوَّاقة الشبِقة
تائهٌ بين الرمش والعين.
بين غبار الصَّد ورائحة الزنبقة
مرهَقٌ
منهَكٌ
مُتَشَرنِق داخل شرنقة
أيا ملاكي.
أيا ملهمتي..
دِينٌ جَديدٌ حبُّك أم هرطقة

اللبوة الثائرة

لا تخفي دموع الحزن يا لبوتي الثائرة..
وابكي كلما اشتقتِ للبكاء
فالحزن ليس عورة..
ودموعك ليست عورة..
لا يولد الإبداع إلا من خاصرة الألم
ولا تزهر الأرض إلا من دموع السماء

الثورة الهوجاء

أنت البادئة.. أنت البسملة
عندليب عذب العندلة
بركان
إعصار
ثورة هوجاء شديدة البلبلة

شخص يسكن قلبي

أعلن هبوط أول إنسان على سطح قلبي

يعشِّش

يخربش

يزرع حبقًا

يرقص ألقًا

يبني قلاعًا وقصورًا

يعمر أرضًا كانت بورًا

يسكن وتين القلب وشغافه

يرسم سوسن الثغر ورضابه

يزيِّن جدرانًا تعسا

يزيل همومًا حُبلى

اللاءات الثلاثة

قالت: أتحبني؟

قلت: لا..

أني أعشقك

والعشق أسمى غايات الحب
أنت قدري النازل..
كررت سؤالها بعد عشرة أعوام
أما زلت تحبني؟
قلت: لا تسألي
فأنت حبيبتي رغم الرعود
وأنت مع برد علاقتنا
تبقين الدفء الهائل.
وبعد خمسة عشر عامًا
عادت تقول: أتحبني؟
قلت: لا
لم أكمل
صار اللسان عليلًا
صار الحرف ثقيلًا
لا أعرف..
كيف تحوَّل الحبُّ السرمدي
إلى قبح صاهل..